(٥)

عبيد الفكر الغربى

- المراد بالفكر الغربى ومقوماته
- ماذا نعنى بعبيد الفكر الغربى ؟
- المشترك بين عبيد اليمين وعبيد اليسار
- أخطر ما صنع الاستعمار
- نماذج وأمثلة : المكشوفون والمقنّعون
- المحرفون للكلم عن مواضعه
- مع الغالب المنتصر
- موقفنا من عبيد الفكر الغربى
- عبيد الأمس شبه معذورين

عبيد الفكر الغربى

العدو الخامس للحل الإسلامى، والفكر الإسلامى، والعمل الإسلامى، هم جماعة (العلمانيين) الذين أسميتهم (عبيد الفكر الغربى)، وإن كانوا من بنى جلدتنا، ويتكلمون بلساننا العربى .

العداوات السابقة – من الاستعمار والصهيونية والشيوعية – عداوات خارجية، وإن كان لها تأثير لا يجحد فى حياتنا الداخلية، بوسائل شتى، أما هذا العدو، والعدو السابق (الحكام المنافقون) فهو عدو من داخلنا مباشرة، وهذا هو الأشد خطرا، والأعمق أثرا .

ونعنى بالفكر الغربى : الفكر النظرى الذى يسود الغرب الحديث فى أوربا وأمريكا . ولسنا نعنى به « الفكر العلمى » القائم أساسا على الملاحظة والتجربة والذى عبرت عنه العلوم الطبيعية والرياضية، التى تفوق فيها الغرب تفوقا ملحوظا . إنما نعنى به الفكر الفلسفى الذى يحدد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة، وإلى الكون والإنسان . فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية « ما وراء الطبيعة » إثباتا أو إنكارا، والفلسفة الأخلاقية بشتى مدارسها، والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها . وقد عبرت عن هذا العلم الفلسفة بشتى مدارسها، والنظريات الأخلاقية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والمذاهب الأدبية .

وسواء كان هذا الفكر ليبراليا أم اشتراكيا، رأسماليا أم شيوعيا، فهو فكر غربى واحد فى الأساس والأصول، والسمات والخصائص . وإن اختلفت صوره وفروعه، وتميز بعضها عن بعض .

أما « الفكر العلمى » القائم على المنهج الاستقرائى أو التجريبى، فلا اعتراض لنا عليه، بل الواقع أن أصله مقتبس من الحضارة العربية الإسلامية التى ارتكزت عليه، وتفوقت فى استخدامه فى شتى المجالات، واعتبره العلماء المسلمون منهجا

قرآنيا، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب، ومؤرخو العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين فى ذلك، وأخذ الغربيين عنهم، كما فى كتابات «بريفولت» و«جورج سارتون» و«جوستاف لوبون» وغيرهم من الشهود العدول [1] كما نقد علماء المسلمين – أمثال ابن تيمية – المنهج أو المنطق الصورى الأرسطى، قبل أن ينتقده الغربيون المحدثون بعدة قرون.

• سمات الفكر الغربى وخصائصه:

هذا الفكر الغربى النظرى فكر خاص له سماته وخصائصه التى ينفرد بها عن فكر الشرق عامة، والشرق العربى والإسلامى خاصة، وهى خصائص عميقة الجذور، لازمته منذ نشأته فى بلاد الإغريق، وانتقاله إلى الرومان، حتى انتقل إلى أوربا المعاصرة، ومن ورائها أمريكا، وأثرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون، تركت «بصماتها» عليه إلى اليوم.

١ – الغبش فى معرفة الألوهية:

أول سمات الفكر الغربى: غبش رؤيته لحقيقة الألوهية، فليست رؤية صافية تقدر الله حق قدره، وإنما هى رؤية غائمة مضطربة، تحيط بها الأوهام والجهالات، بل الحق أن الغرب – كما يظهر من تاريخه – لم يعرف الله جل شأنه معرفة صحيحة، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره، ولم يعرف حقيقة الألوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة. وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية، والوحى المعصوم، معرفة مباشرة، فيما علمنا من تاريخه. ومن ثم سار فى الطريق وحده باحثا عن «العلة الأولى» أو «المحرك الأول» أو «واجب الوجود» فتعثر وتخبط وغلبت عليه الأوهام والأهواء.

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة «الإلهيين» أى الذين اعترفوا بالألوهية فى الجملة، مثل العمالقة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، الذين

---

(١) انظر: رسالتنا: «الدين فى عصر العلم» من رسائل ترشيد الصحوة الإسلامية، نشر مكتبة وهبة.

رفضوا الإنكار والإلحاد، لم يكن تصورهم للألوهية تصورا صحيحا، بل كان تصورا قاصرا مضطربا مشوبا بالكثير من الأوهام والتخليطات.

لنأخذ مثلا «إله» أرسطو «المعلم الأول» [١] لدى الإغريق، لنرى أى إله هو؟ أهو الإله الذى نعرفه نحن، خالق كل شئ، ورازق كل حى، ومدبر كل أمر، العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون، الفعال لما يريد، والقادر على كل شئ؟ أم هو إله آخر غير هذا الإله الذى نعرفه؟

لنستمع فى ذلك إلى أحد مؤرخى الفلسفة المعاصرين ...

يقول «ول ديورانت» فى «مباهج الفلسفة»:

«يتصور أرسطو «الله» بوصفه روحا تعى ذاتها، وهذه هى الأخرى روح غامضة خفية، وذلك لأن إله «أرسطو» لا يقوم أبدا بأى عمل، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة، إلى حد تجعله لا يفعل أبدا، وهو كامل كمالا مطلقا، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب فى أى شئ، ولذلك لا يعمل أى شئ! ووظيفته الوحيدة هى التأمل فى جوهر الأشياء، ونظرا لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء، وشكل جميع الأشكال، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل فى ذاته. يا لإله أرسطومن إله مسكين! إنه ملك، لا يحل ولا يربط، فالملك يملك ولكنه لا يحكم!.

«ولا غرو أن يحب الإنجليز «أرسطو» فإلهه هو - بوضوح - صورة طبق الأصل عن ملكهم، أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات» [٢].

وإذا كان إله أرسطو مسكينا، لأنه لا يستطيع أن يحل ولا يربط فى الكون، ولا يتأمل إلا فى ذاته فأشد منه مسكنة إله أفلوطين - الذي تنسب إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمل في شئ، حتي في ذاته نفسها!! [٣].

---

(١) هكذا أطلقت عليه المدرسة الفلسفية المشائية فى الحضارة الإسلامية: الفارابى وابن سينا ومن وافقهما.

(٢) مباهة الفلسفة ص ١٦١ - ١٦٢ من الترجمة العربية.

(٣) انظر: «الله» للأستاذ عباس محمود العقاد.

٢ - النزعة المادية :

ومن سمات الفكر الغربى : المادية، ونعنى بها تلك النزعة التى تؤمن بالمادة وحدها، وتفسر بها الكون والمعرفة والسلوك، وتنكر الغيبيات، وكل ما وراء الحس، فهى لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون، ولا برسل له ينزل عليهم الوحى، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان، ولا بحياة أخرى بعد هذه الدنيا، ولا بعالم غيبى غير هذا العالم المنظور، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللذات الحاضرة، لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس، ولا تهدى إليها الملاحظة والتجربة.

الفكر الغربى فكر مادى، يحتقر الروحيات .. حسى، لا يحفل بالمعنويات ... واقعى، لا يؤمن بالمثاليات.

وأود أن أنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد، فلا يحتج علينا محتج بأن فى الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين، فيه أمثال جيمى كارتر الرئيس الأمريكى الذى قال : إنه ولد ولادة مسيحية جديدة. فيها المسيحية الأصولية الموالية لليهود، المساندة لإسرائيل، إن العبرة بالأغلب، والنادر لا حكم له، والأكثر له حكم الكل، كما هو معلوم.

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة، سواء منها الجانب النظرى أم الجانب العملى، حتى أصبح معروفا لدى الدراسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقية اليوم هى «المادية».

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون إلى الأمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق. إذ المعروف لديهم : أن أمم الغرب فى مجموعها تدين بالمسيحية، وينص كثير من دساتيرها على ذلك، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة فى العالم، وانجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية. وقد ورثها فى ذلك الآن الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة،

تولى بعضها الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين البريطاني يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية ... فكيف يسوغ لنا – بعد هذا – أن نشكك في إيمان الغرب بالدين وتمسكه به؟.

ولكن ينبغي ألا تخدعنا الصور عن الحقائق، ولا القشور عن اللباب، ولا الأسماء عن المسميات.

فالمسيحية عند هؤلاء «شعار» يرتبطون به، و«صليب» يتجمعون حوله، ونزهة إلى «الكنيسة» في أيام الآحاد، وليست «قيما» يؤمنون بها، و«عقائد» يخضعون لها، ويكيفون حياتهم وفقا لها، ونحن نتحدث طبعا عن الغالبية العظمى، لا عن أفراد يعدون شواذ بالقياس إلى مجتمعهم، فهم في قومهم كحلقة في فلاة.

فالغربي الحديث إذا كشفت عن جوهره الحقيقي وجدت إنسانا لا يعرف إلا المادية دينا، والنفعية مذهبا.

وننقل هنا كلمة رجل أوربي باحث متعمق هو «ليوبولد فايس» النمساوي الذي اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم «محمد أسد» في كتابه المعروف «الإسلام على مفترق الطرق» يقول:

«إن الأوروبي الحديث – بما ينطوي عليه من جحود مهمل لوجود النفس على أنها حقيقة عملية – لم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما. لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار في الحياة وراءه ظهريا.

«إن الاتجاه الديني مبني دائما على الاعتقاد بأن هنا لك قانونا أدبيا مطلقا شاملا، وأننا – نحن البشر – مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة لخضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية» (١)!

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٠، ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثانية.

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوربية للدين، وأعاده إلى سببين أساسيين:

أولهما: وراثة أوروبا للمدنية الرومانية، مع اتجاهها المادى التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية، وقيمتها الذاتية.

والثانى: ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعية فى الإنسان [1].

وقد حلل الحضارة الرمانية - التى هى أم الحضارة الغربية - تحليلا دقيقا، ينبغى لنا أن نسجله، وأن نعيه وعيا جيدا. قال:

«إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية. لقد كانت أشباحا سُكت عن وجودها حفاظا للعرف الاجتماعى، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل فى أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية.

«تلك كانت التربية التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها، ثم إنها بطبيعة الحال قد حورت وبدلت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية، فى أكثر من ناحية واحدة، ولكن الحقيقة الباقية: أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية.

«وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعيا بحتا، ولا دينيا - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو فى الغرب الحديث.

«إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة - أى جحودا مطلقا فى قوة وصراحة - ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة «لله» فى نظامها الفكرى الحالى.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠.

« وهكذا يميل الأوربى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التى ينتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه، ولا تحت ذاك، فإن العقل الأوربى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتباراعت العملية » (١).

ولم ينكر « ليوبولد فايس » أن فى الغرب بعض الأفراد المتدينين، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية، أو يؤثروا فى توجيه التيار الفكرى العام. قال:

« لا ريب أنه يوجد فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط.

« إن الأوربى الحديث - سواء كان ديموقراطيا أم فاشيا، رأسماليا أم بلشفيا، صانعا أم مفكرا - يعرف دينا إيجابيا واحدا. هو التعبد للرقى المادى، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر . . .

« إن هياكل هذه الديانة - أى معابدها وكنائسها - إنما هى المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما، وقادة الصناعات وأبطال الطيران!. وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال: هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة - أى اللذة - وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، ومصممة على أن يفنى بعضها ببعضا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

« أما على الجانب الثقافى، فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٤ وما بعدها.

الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر، إنما هو التقدم المادى لا غير » [١].

وليست شهادة « ليوبولد فايس » على المدنية الغربية هى الشهادة الوحيدة، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد، وأكدوا ما قال، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عن الأستاذ « جود » الإنجليزى قوله : « إن نظرية الحياة التى تسود هذا العصر، وتحكم عليه : هى النظرة فى كل مسألة وشأن، من ناحية المعدة والجيب » [٢].

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور « جون جنتر » تمثيل هذه الفلسفة فى كتابه « فى داخل أوربا » بقوله : « إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام فى الزسبوع، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة » [٣].

وهذه شهادات قديمة، وقد ساء الوضع وتدهور كثيرا، وكثيرا جدا، عما شهده وشهد به هؤلاء النقاد، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن ٥٪ فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد، وإن لم يكن هذا الذهاب يعنى التدين بالضرورة.

٣ - النزعة العلمانية :

ومن سمات الفكر الغربى وخصائصه : النزعة العلمانية - وهى من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما - وهى تلك النزعة التى تفصل بين الدين والدولة، وبعبارة أخرى : بين الدين والحياة الاجتماعية.

فالدين فى نظر الغربى علاقة بين الإنسان وربه، محلها ضميره الذى بين

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤١ .

(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٥٧ ، الطبعة الثانية .

(٣) المصدر السابق .

جنبيه، فإن خرج عن الضمير، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد، أو الكنيسة، وليس من شأنه أن يوجه الحياة بالتشريع والإلزام، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التى تحكم المجتمع، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة وإعلام، وإدارة، واقتصاد، وسياسة وتشريع.

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة فى الكنيسة ورجالها وكهنتها، الذين زعموا أنهم يمثلون فى الأرض إرادة الإله فى السماء، وأن رأيهم دين، وطاعتهم عبادة، ومخالفهم شيطان.

وللأسف كان رأيهم وفكرهم – الذى اعتبروه دينا من عند الله – يؤيد الخرافة ضد الفكر، والجهل ضد العلم، والجمود ضد التحرر، والظلم ضد العدل، والظلام ضد النور.

أقامت الكنيسة «محاكم التفتيش» لمطاردة العلم، ومحاكمة العقل، ومقاومة الابتكار، ومحاربة كل جديد، وفعلت الأفاعيل – التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا – ضد العلماء والمفكرين والمخترعين، وقتلتهم أحياء، وحرقتهم أمواتا.

فلما مس الغرب المسيحى نفحة من الشرق الإسلامى، هب يدافع عن ذاته، ويثور على جلاديه، ويرفض الدين الذى حرمه من الدنيا، وحرم عليه العلم والتفكير، دين الكنيسة والبابوات، الذين يملكون قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، ويوزعونها على من يشاؤون.

رفض الفكر الغربى الناهض الدين الذى كبله بالأغلال، ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكنا فى الضمائر، فإن خرج فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها.

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشه، وعزله عن عجلة القيادة، نهض بعد عثرة، وارتقى بعد هبوط، واغتنى بعد فقر، وقوى بعد ضعف، وهذا ما

جعله يزداد إيمانا بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية : أن لا مكان للدين فى توجيه الدولة والمجتمع .

ومما يؤيد هذا التوجه فى الفكر الغربى : أن الإنجيل نفسه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه، حيث يقول المسيح : « دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله » .

ومعنى هذا : أنه قبل قسمة الحياة نصفين : نصف للدولة المعبر عنها بـ « قيصر »، ونصف للدين، الذى هو لله .

فهذا الانشطار والانقسام والانفصام بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة هو إحدى السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربى .

٤ - الصراع :

ومن خصائص فكر الحضارة الغربية : أنه فكر حضارة تقوم على الصراع، لحمتها وسدادها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب .

وهو صراع متغلغل فى كل النواحى، متنوع الأشكال، متعدد المجالات، متباين الأسلحة والأساليب .

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضا بين الإنسان والإله!

فالإنسان فى الغرب يصارع فطرته التى فطره الله عليها، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التى تريدها له ديانته النصرانية، فالوضع المثالى له أن يستقذر الجنس، ويهرب من الدنيا، ويرفض المال، لأن الغنى لا يدخل ملكوت السماوات إلا إذا دخل الجمل سم الخياط، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق، ومن زينة الله التى أخرج لعباده، ويتحمل السيئة من المسئ، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن! فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك - كما هو شأن معظم الناس - ظل يعانى عقدة الصراع بين مثاليته التى يؤمن بها وواقعه الذى يعيشه ويمارسه .

وإنسان الحضارة الغربية فى صراع مع الطبيعة، لأنه ينطلق من أن الطبيعة

عدو له، يجب أن يفرض سيطرته عليها، ولهذا يعبر الغربيون عن ذلك بكلمة «قهر الطبيعة» وهى كلمة لها دلالتها وإيحاؤها . على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مسخرة لمنفعة الإنسان، كما فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾

وهو ما عبر عنه النبى ﷺ أجمل تعبير وأرقه فى شأن جبل أحد حين قال : «أحد جبل يحبنا ونحبه» (١) .

والإنسان فى الحضارة الغربية فى صراع مع أخيه الإنسان، وهو صراع يأخذ صورا شتى .

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية، والفلسفة النفعية، وشيوع مقولة «هوبز» : «الإنسان ذئب للإنسان» ! وقول كل امرئ بعد ذلك : «أنا وليخرب العالم» !

وهو صراع بين الطبقات والجماعات، وخصوصا مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها، وجورها على غيرها، واحتقارها لمن سواها .

وهو صراع بين الأمم والأجناس، وخصوصا مع حدة الشعور القومى، ونزعة الاستعلاء عند كل أمة، وهو ما أدى إلى حروب إقليمية وعالمية، وما لا نزال نرى أثره فى العلاقة بين البيض والسود، أو البيض والملونين عامة، فى أمريكا وإفريقيا وغيرها .

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة، الذى انتهى إلى ما عرف عندنا باسم «العلمانية»، وتعنى : فصل الدين عن شؤون الدولة والمجتمع .

ومثله الصراع بين الدين والعلم، وبعبارة أخرى بين المؤسسة التى تمثل الدين

---

(١) رواه البخارى عن سهل بن سعد، والترمذى عن أنس .

وهى الكنيسة ورجال الأكليروس، والمؤسسة التى تمثل العلم، وهى الجامعات ومراكز البحث وغيرها .. وقد تجسد هذا الصراع فى محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان.

وأدهى من ذلك كله وأمرّ فى الحضارة الغربية: الصراع بين الإنسان والرب أو الإله، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين:

١ – وثنية اليونان وآلهتها التى كانت تغير وتدمر وتحرق.

٢ – العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذى يصور الإله حاقدا ناقما غيورا حتى إنه يخلق الإنسان (آدم) ثم يخاف منه، ويخشى أن يزاحمه فى المعرفة أو الخلود، فيحرم عليه الأكل من الشجرة، وهو يصارع إسرائيل، فيصرعه إسرائيل، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذريته!!

٥ - الاستعلاء على الآخرين:

ومن سمات الفكر الغربى: نزعة الاستعلاء على الآخرين، التى تسرى وتتحكم فى عقول الغربيين كافة، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصرا، وأنقى دما، وأنهم خلقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا، وأن الآخرين خلقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم. هكذا بالفطرة والخلقة.

ولهذا سقطت هذه النظرة من الناحية العلمية، فلم يثبت العلم أن هناك جنسا أفضل من جنس، من جهة الخلقة والفطرة، ولكنها البيئة والظروف المساعدة، وقد كانت شعلة الحضارة فى يد الشرق قديما، أيام حضارة الفراعنة والفرس والهنود والصينيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسته نفحة من الشرق الإسلامى عن طريق الأندلس وصقلية، ولقاءات الحروب الصليبية، والدور الآن للشرق لا للغرب الذى أفلس فى قيادة الحضارة وإسعاد العالم بها.

لقد سقطت نظرية الأجناس علميا، ولكنها لم تسقط نفسيا، ولا زال لها تأثيرها فى أنفس الكثيرين، بل الأكثرين من أبناء الغرب فى علاقتهم بالآخرين.

والعجيب أن نجد رجلا عالما كبيرا مثل« د. ألكسيس كارل » من علماء هذا القرن ومن الحائزين علي جائزة نوبل في العلوم يؤمن بتفوق الأجناس البيضاء علي غيرها، كما ذكر ذلك في كتاب (الإنسان ذلك المجهول) ولهدا نجد الأوربيين يعتقدون أن أوربا أم الدنيا، وأن التاريخ منها بدأ، وإليها يعود، وأن التاريخ القديم والوسيط والحديث هو تاريخ أوربا وحدها. وأن الحضارة هى حضارتهم وحدهم، وأن القرون الوسطى تعتبر قرون الظلام، لأنها كانت هكذا عندهم، متجاهلين أن هذه القرون كانت هى الفترة الذهبية التى سادت فيها الحضارة الإسلامية المبدعة المتوازنة.

وهذا الاستعلاء ما أخذه الأوربيون عن الرومان الذين كان العالم فى نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة، فكل من عداهم برابرة همج!

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوربيين عامة ينتقل إلى أقطار منها خاصة، كل يزعم أنه الأنقى سلالة، والأزكى عنصرا. كما صنع « هتلر» ورفع شعار: ألمانيا فوق الجميع، وكما فعل « موسلينى » وجماعته، ورفعوا شعار: إيطاليا فوق الجميع، وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار: سودى يا بريطانيا واحكمى! فشأن هؤلاء شأن بنى إسرائيل الذين يزعمون أنهم - بجنسهم - شعب الله المختار!

تلك هى أبرز السمات والخصائص المميزة للفكر الغربى. والتى كان لها نضحها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقته بنفسه وبالآخرين، وكان لها ثمار إيجابية فى بعض الجوانب، كما كان لها آفاتها وثمارها المرة فى جوانب أخرى. وإن الغربيين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الآثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية، وطفقوا ينكرون عليها ماديتها وعلمانيتها واستعلاءها وغرورها، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين، ويبشرون بمستقبل العقيدة.

- **ماذا نعنى بعبيد الفكر الغربى؟**

هذا هو الفكر الغربى الذى نعنيه، وهذه ملامحه ومعالمه الأساسية، فمن هم عبيد الفكر الغربى؟

عبيد الفكر الغربى هم الذين سيطرت على عقولهم مفاهيم هذا الفكر، وقيمه الخلقية، وتصوره للدين وللإنسان وللحياة.

وكدت أسميهم «تلاميذ الفكر الغربى» ولكنى تأملت موقف هؤلاء من الغرب، فوجدته أكثر من «تتلمذ» إن أصدق تعبير له هو «العبودية».

إن التلميذ الذكى يناقش أستاذه، وقد يعترض عليه، بل قد يخالفه ويرد قوله، وهؤلاء قد وضعوا أنفسهم موضع العبيد من السيد، فما يراه الغرب - سيدهم - حسنا فهو عندهم حسن، وما استقبحه فهو عندهم قبيح، كل ما يعتقده الغرب فهو حق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل، وكل ما يدعو إليه فهو خير ورشد!

● **عبيد اليمين وعبيد اليسار سواء:**

وهؤلاء العبيد فريقان:

فريق اتخذ له سيدا من المعسكر الغربى وهم دعاة الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية وهم الذين يسمون «اليمينيين».

وفريق اتخذ له سيدا من المعسكر الشرقى وهم دعاة «الاشتراكية العلمية» أو «الماركسية»، وهم الذين يدعون «اليساريين».

والفريقان يختلفان فى مسائل شتى، ولكنهم تجمعهم أمور جوهرية، هى:

١ - النظرة إلى الحياة والإنسان نظرة مادية تتجاهل موازين الدين وقيمه وأحكامه، ولا تجعل لله مكانا فى توجيه حياة الإنسان، وبخاصة المجتمع والدولة، ولا تجعل لوحيه سلطة الأمر والنهى والإلزام والتقويم.

٢ - تقديس الفكر الغربى واعتباره مصدر الهداية والنور للبشرية كلها وللعالم قاطبة. واتخاذهم قبلة فكرية لهم خارج أوطاننا، فلا يأتيهم الوحى إلا من هناك، من لندن أو باريس أو موسكو أو واشنطن.

٣ - ازدراء الفكر الإسلامى قديمه وحديثه، واعتباره فكرا جامدا أو متخلفا

لا يصلح لهذا العصر، لا تنطلق به نهضة، ولا ترقى به أمة. وذلك نتيجة جهلهم بهذا الفكر، وغربتهم عنه.

٤ – المعارضة بشدة لعودة الإسلام إلى قيادة المجتمع والسيادة على الحياة، واعتبار ذلك (نكسة) يجب أن تقاوم بكل وسيلة، وأن يؤخذ على دعاتها كل سبيل. ولهذا صنفناهم فى «أعداء الحل الإسلامى».

● **عبيد ولكن لهم سلطان:**

وهؤلاء العبيد لهم فى أوطان العرب والمسلمين سلطان أى سلطان. فهناك كثير من الذين يحررون الصحف، ويوجهون برامج الإذاعات و«التليفزيون» والمسارح والسينما، والقنوات الفضائية، ويديرون أجهزة الدعاية والإعلام، ويؤثرون فى تفكير المجتمع ومشاعره وسلوكه – من هؤلاء الفاتنين المفتونين، والخادعين المخدوعين.

وكثير من أساتذة الجامعات والمعاهد العليا فى بلادنا العربية والإسلامية من هذا الصنف أيضا.

ومن المؤلم حقا أن يكون معظم زعماء السياسة ورجال الحكم فى العالم العربى، والعالم الإسلامى من هؤلاء العبيد، أو من تلاميذهم، فهم بين عبيد لليمين وعبيد لليسار، بين مؤمن بالرأسمالية الليبرالية، وداعية للاشتراكية الثورية.

من أجل هذه العبودية التى نشأ عليها هؤلاء رأينا أكثر حكام المسلمين – كما بينا فى الفصل السابق – فى شتى بلاد الإسلام يعارضون الحكم الإسلامى، ويقفون فى طريق الحل الإسلامى، ويطاردون دعاته، ويضطهدون أنصاره، ويقفون فى وجه الصحوة الإسلامية، وإن اختلفت أساليبهم كما وكيفا فى المطاردة والاضطهاد.

ولكن خطر هؤلاء الحكام ليس كبيرا لو كانوا يعملون وحدهم، فإنهم سيظلون معزولين عن شعوبهم المسلمة، عاجزين عن التأثير فى فكرها ووجدانها وإرادتها وسلوكها.

وإنما يتضاعف خطر هؤلاء بمن يفلسف لهم سياستهم، ويبرر لهم طريقتهم، ويزين لهم الاستمرار فى طريق « التغريب » أو « التأورب » أو « التأمرك » أو « التمركس » إلى آخر الشوط ونهاية المطاف.

الخطر الحقيقى فى قادة الفكر والتوجيه فى الجامعات والتربية والتعليم والثقافة والإعلام، الذين يصنعون للشعوب رأيها وذوقها واتجاهها، لا كما تريد هى، بل كما يريد لها أعداؤها الطامعون فيها، الخائفون منها، الحاقدون عليها.

وعلى هذا الصنف تركزت عين الاستعمار فى بلادنا، وفى سبيل تكوينه كان تخطيطه وتنظيمه، وتربيته وتعليمه.

● **أخطر ما صنع الاستعمار:**

كان هم الاستعمار الأكبر أن يخلق فى كل بلد دخل فيه جيلا جديدا يهضم الحضارة الوافدة، ويتقبل الوجود الدخيل، ويبرأ من قديمه الأصيل، الذى لم يكن ينظر إلا به، ولا يفكر إلا على أساسه، وقد كان محور هذا القديم الأصيل هو الإسلام.

كان الاستعمار يريد أن يصنع من أبناء الشرق المسلم جيلا طيعا، يلين فى يديه لين العجينة فى يد الخباز، جيلا ينتهج نهجه، ويطيع أمره، وينقاد له مختارا، ويقول ما قاله أحد وزراء مصر يوما عن العلاقة بين مصر وبريطانيا: إنه عقد زواج كاثوليكى لا طلاق فيه!

كان الاستعمار يعمل على خلق جيل شرقى الوجه والدم، غربى الذوق والتفكير، يحمل فى شهادة ميلاده أو جواز سفره، اسما عربيا إسلاميا، ويحمل فى رأسه عقلا أوربيا أو أمريكيا خالصا! وكان يريد أن يأتى اليوم الذى لا يظهر فيه على المسرح بنفسه أو بممثليه المباشرين، وأن يدع دوره لوجوه « وطنية » أو « قومية » تؤدى نفس مهمته، وتسير فى نفس طريقه، طريق الهدم بغير فأس، والقتل بغير إطلاق الرصاص! وهذا كان - فى الحقيقة - أخطر ما صنع الاستعمار فى ديارنا، وما خلف من آثار فى أوطاننا.

كان الاستعمار يعمل على أن يقوم بدوره – فى التخريب لكيان الأمة المعنوى، ومقوماتها الروحية والخلقية والفكرية – عرب بل مسلمون بالذات، فإن الشجرة – كما قال أحد المبشرين – لا يقطعها إلا أحد أبنائها! ونجح الاستعمار، وتحقق له ما أراد.

تحقق بمن اصطنعهم لنفسه، وصنعهم على عينه، بهؤلاء العبيد من حملة الأقلام، وموجهى الفكر الخاص والرأى العام.

وعرفت ديار الإسلام هذا الصنف «الهجين» من أبنائها الذين وصفهم رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرنا من الزمان بأنهم «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» فلما قيل له: يا رسول الله، صفهم لنا قال «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» (١).

وهذه هى الكارثة حقا، كارثة الذين يريدون أن يخلعوا الأمة من دينها، وهم – مع هذا – ليسوا بإنجليز ولا فرنسيين ولا روس ولا أمريكان، وإنما هم «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»!

هؤلاء الوطنيون القوميون المتغربون من بنى جلدتنا هم – فى الواقع – أخطر من سادتهم وأساتذتهم وصانعيهم من المستعمرين المكشوفين.

إن الاستعمار على ما له من قدرة وطاقات جبارة، بمن يستخدمه من بنى قومه من المبشرين والمستشرقين، ومن على شاكلتهم، لهم أهون خطرا من هؤلاء

---

(١) من حديث حذيفة بن اليمان عند البخارى ومسلم، وأوله: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ – عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، قال قلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير (يعنى الإسلام) فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن (أى هو خير غير خالص ولا صاف) قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتى، ويهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ... إلخ الحديث.

العبيد، الذين يتزيون بزى (الأحرار) الثائرين، هؤلاء الأجانب - عن قومهم - الذين يبدون فى صورة الوطنيين الغيوريين.

إن ما يصدر عن الاستعمار عن طريق مبشريه ومستشرقيه يظل قليل الخطر، ضعيف الأثر، ما لم يتبنّه هؤلاء العبيد، ويجعلوه - كذبا - بضاعة وطنية هم أصحابها وصانعوها، وما هم إلا «حمالون» لهذه البضاعة الأجنبية.

إن شعوبنا تنفر بطبيعتها من كل ما يصدر عن عدو دينها ووطنها متى عرفت ذلك وأدركته؛ لأنها تعلمت من دينها وتاريخها وتجاربها أنه لا يضمر لها خيرا، ولا يريد لها قوة ولا رفعة ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولكن شعوبنا تنخدع بالفكر الدخيل الصادر عن عدوها، إذا جاءها على يد أبنائها الذين أحسنت بهن الظن، إنها تتقبل هذا الفكر المستورد إذا خلع قبعته وزيه الغربى، ولبس الزى الشرقى، ونطق باللسان العربى.

وهذا هو كل ما كان يريده الاستعمار، وما جاهد من أجله، منذ أن احتل أرض الإسلام: أن يرحل هو، ليخلف وراءه من يحمل فكرته، ويتبنى تقاليده وحضارته من أبناء البلاد أنفسهم. ولا ريب أنه الآن سعيد قرير العين بنتيجة ما صنع، وحصاد ما زرع، فى السنين الطوال، سعيد بتلاميذه الذين «ترجمهم» ترجمة غربية خالصة كاملة، فأصبحوا نسخا أجنبية مغلفة بغلاف شرقى عربى.

إن الاستعمار بنوعيه: القديم والجديد، وبجيشيه: المبشرين والمستشرقين، وبشقيه: الرأسمالى والاشتراكى - لم يعد فى حاجة إلى أن يترجم كتبه إلى شرقنا الإسلامى، بعد أن (ترجم هذه الطائفة) من أهله، هذه الطائفة «العصرية» «المتحررة» «التقدمية»!.

أجل، لقد نام الاستعمار ملء جفنيه، بعد أن (ترجم هؤلاء)، وتركهم يقودون قافلة التعليم والثقافة والأدب والفن فى الطريق الذى رسمه، وإلى

الهدف الذى أراده. وما له لا ينام مطمئن الجنب، سعيد الأحلام، وقد غدا هؤلاء «الكبار» من الكتاب والأدباء «والدكاترة» والموجهين، لسانه الناطق بما يريد، وقلمه المصور لما يحب، بل يده المنفذة لما يود ويشتهى؟!

ومما زاد من خطر هؤلاء العبيد أن الاستعمار قد استطاع بإمكاناته المادية والأدبية، وبوسائله الخفية والعلنية، وبأجهزته الدعائية الجبارة، أن يجعل لهؤلاء العبيد ذكرا مرفوعا، وصوتا مسموعا، وأن يفتح لهم المغاليق، ويمهد لهم كل طريق، ويزيل من أمامهم كل عقبة، حتى يظهروا ويسودوا ويقبضوا على مقاليد الأمور فى ديار الإسلام، وخصوصا مقاليد الثقافة والفكر والتوجيه والتأثير فى كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون.

استطاع الاستعمار المتمكن المقتدر أن يصطنع لهؤلاء دعاية ضخمة أحاطتهم بهالة من الإكبار والإجلال والتقديس، ونفخت فيهم نفخة ضخمتهم وفخمتهم فى أعين الناظرين، فجعلت من القط جملا، ومن الحبة قبة - كما يقول المثل العامى - وأضفت عليهم من نعوت التحرر والتجدد، ومن ألقاب الريادة والقيادة ما خدع بهم الكثيرين، الذين أعجبوا بالدمى العجيبة المتحركة المتكلمة، ولم يلتفتوا إلى الأصابع المستورة أو البطاريات المخبوءة، التى تحركها!

أجل استطاعت الدعاية الدائبة المدروسة المخططة أن تجد سبيلها إلى قلوب الكثيرين من الطيبين المخلصين فى شعوبنا الطيبة، فصدقوا ما شاع، ورددوا ما قيل، عن عبقرية هؤلاء المجددين المتحررين! صدقوا أن تحت القبة شيخا تشد الرحال إليه، وتلتمس البركات بين يديه، بركات العلم والأدب والفن والثقافة العالية!

والحق أن هؤلاء إذا سبرت أغوارهم، وخبرت ما عندهم، لم تجد لهم أصالة ولا ابتكارا، ولا شيئا ذا قيمة حقيقية، يستحق كل هذه الضجة، وكل هذا

التهويل، وكل هذا التعظيم والتقديس، وإنما هى الأوهام والأهواء تجعل من الحجارة الصماء آلهة تعبد من دون الله، وتقدم لها النذور والقرابين .. وعلى هذه الطريقة نفسها صنعت «الأصنام الفكرية» فى بلادنا، وقام على سدانتها كهان مأجورون مزورون.

ويوم تسترد بلادنا شخصيتها، وتتحرر من بقايا الاستعمار الفكرى والاجتماعى، ويكتب تاريخ الفكر فيها من جديد، سيهوى إلى القاع رجال رفعوا لى القمة، وسترى رجالا كبارا – وكباراً جدا – قد أصبحوا صغارا صغارا، سيستحيل أولئك العمالقة – فيما زعموا – إلى أقزام. ستراهم الأمة على حقيقتهم، أدوات جيدة فى يد التبشير والاستشراق، أى فى يد الاستعمار، سترى الذين زعموا – أو زعم لهم – أنهم مجددون! لم يكونوا إلا مقلدين للغرب المستعمر، حذو النعل بالنعل، وأن جديدهم لم يكن إلا قديم أوربا .. وسترى الأمة الذين زعموا – أو زعم لهم – أنهم أحرار الفكر لم يكونوا إلا عبيدا أقنانا للحضارة الغربية، يركعون عند أقدامها، ويسجدون فى خشوع لكل ما يصدر عنها من قيم وأفكار، ومفاهيم وتقاليد، بدون تمحيص ولا تمييز «خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد وما يعاب» وأن حرية الفكر التى زعموها لم تكن إلا التمرد على دينهم وتراثهم، والرفض والاحتقار لكل ما استقلت به حضارتهم، أو اختصت به أمتهم.

- **نماذج وأمثلة – العبيد المكشوفون:**

هؤلاء العبيد أصناف وأنواع .. منهم نوع مكشوف القناع، لا يبالى بأن يظهر عبوديته للغرب، وأن يدعو جهرة إلى تقليده، واتباع خطاه، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، دون حياء من قومه، ولا احتفال بمشاعر الجماهير من أمته.

وقد رأينا هذا النوع قديما فى مثل أحمد خان فى الهند، وضياء كوك ألب فى تركيا، وفى مثل سلامة موسى – المسيحى المصرى – وجميل المعلوف –

المسيحى اللبنانى – والدكتور طه حسين، فى فترة من الفترات – على تفاوت بينهم – فى درجات اللين والعنف فى موقفهم من عقائد الأمة.

يقول سلامة موسى فى جرأة يحسد عليها: أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوربا، (ومعنى الخروج من آسيا الخروج من الإسلام الذى جاء به النبى محمد من آسيا).

يريد سلامة موسى « حرية المرأة كما يفهمها الأوربى » كما يريد « من الأدب، أن يكون أدبا أوربيا ٩٩٪ » ويريد من التعليم « أن يكون أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه » بل يقول هذا « المفكر » و « الإنسان » كما سماه بعضهم !!: « إن الأجانب يحتقروننا بحق .. ونحن نكرههم بلا حق »!! [١] ويعنى بالأجانب الإنجليز المستعمرين لمصر فى ذلك الوقت..

ويقول جميل معلوف فى جرأة أشد على مقدسات الأمة بكل طوائفها وأديانها:

« إن خلاص الشرق يتوقف على « تفرنج » الشرقيين بكل معنى الكلمة.

« لا عهدة تربطنا بأسلافنا .. يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس »

« إننى أرى بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيين من الأنبياء » [٢]!!!

ويعرض طه حسين لهذا الأمر بأسلوب ألين وأدهى، ولكنه أشد تأثيرا من أسلوب العنف والإثارة المباشرة، فيرى سبيل النهضة « واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهى أن نسير سيرة الأوربيين لنكون لهم أندادا ونكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب » – « وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوّم

---

(١) من كتاب « اليوم والغد » لسلامة موسى.

(٢) من كتاب « تركيا الجديدة » لجميل معلوف.

الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها » ويقول « فأما الآن – وقد عرفنا تاريخنا، وأحسسنا بأنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج – فإنى لا أخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوربيين » (١)!! أى إن طه حسين لا يكفيه هنا أن تكون صلة قومه بالأوربيين صلة تعلّم أو اقتباس أو محاكاة، بل المطلوب أن يفنوا فى الأوربيين!!

● عبيد الماركسية واليسار:

ورأينا هذا النوع فى الكتاب اليساريين فى العالم العربى والإسلامى، أيام سطوة الشيوعية، ونفوذ السوفيت، هؤلاء الذين اتخذوا « الماركسية اللينينية » لهم دينا، وجعلوا من كتبها مصادر مقدسة لا تضل ولا تنسى، فهؤلاء لا يؤمنون بإله، ولا بوحى، ولا آخرة، ويسخرون من الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ولا يؤمنون إلا بشئ واحد هو « المادية الجدلية » التى جاء بها معبودهم « كارل ماركس ».

فلا يتوقع من هؤلاء إلا أن يعادوا الفكر الإسلامى، والحل الإسلامى، والحركة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، ويقفوا فى وجهها بكل ما استطاعوا. وفى هؤلاء شيوعيون صرحاء جاهروا بشيوعيتهم، وانتمائهم إلى منظمات شيوعية، وآخرون اكتفوا بأن خلعوا على أنفسهم وصف « اليسارية أو الثورية أو التقدمية أو الاشتراكية » وكلهم سواء فى موقفهم من فكرة الإسلام، ورسالة الإسلام، ومنهج الإسلام.

● الذين يتسترون بالماركسية والثورية:

ومن هؤلاء – والحق يقال – من وجد فى « الماركسية »والثورية مخبأ « عصريا » ممتازا يلجأ إليه، ويحتمى به، لينفس عن حقد كامن فى صدره على

---

(١) من كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر» تأليف د. طه حسين.

أمة الإسلام، وحضارة الإسلام، فهو يرضى «صليبيته» الرقطاء بما ينفث من سموم ضد الإسلام وأهله ودعاته تحت ستار «التقدمية» «والاشتراكية» كما فعل قبل ذلك إخوان لهم تحت عنوان «الديموقراطية والليبرالية».

فهؤلاء لا يهمهم من الماركسية ولا التقدمية إلا أنها معول جديد للهدم فى بنيان الإسلام – فكرته وحضارته وتاريخه – دون أن يوصموا بطائفية أو تعصب دينى، وغير ذلك من العبارات «الرجعية» التى تنافى روح العصر!

ولو كانوا رجالا يملكون خلق الشجاعة لكشفوا عن دخيلتهم، وأماطوا ولو كانوا رجالا يملكون خلق الشجاعة، لكشفوا عن دخيلتهم، وأماطوا اللثام عن وجوههم، وخلعوا تلك الملابس «التنكرية» التى يمثلون فيها دور «التقدميين والثوار» وهم فى حقيقة أنفسهم ليسوا أكثر من صبيان للمبشرين واللاهوتيين.

● **العبيد المقنعون:**

ومن هؤلاء العبيد – عبيد الفكر الغربى – صنف مقنع ماكر، لا يصرح بالتبعية كما صرح الأولون، ولكنه يلف ويدور فى خبث ودهاء، واضعا السم فى الدسم، متحايلا على بث أفكاره الدخيلة، ملفوفة بأغلفة من الألفاظ البراقة، والعبارات المائعة، لتعمل عملها فى العقول والقلوب، بلا ضجيج ولا إعلان. إنهم يعملون جاهدين لإدخال المفاهيم الغربية إلى ثقافة الأمة، بحيث تتشربها وتتقبلها وتتكيف بها، دون أن تشعر بخطرها ومضادتها لعقيدتها وشريعتها، وذلك مثل مفاهيم الوطنية، والقومية، والحرية الشخصية، وحرية المرأة، ونحو ذلك .

فمفهوم «الوطنية» مثلا يعنى عندهم تأليه الوطن ونقل مشاعر الولاء التى كانت لله تعالى ولرسوله ولدينه، إلى الولاء للوطن وترابه .. فالعمل يجب أن يكون من أجل الوطن، والجهاد أو الدفاع يجب أن يكون فى سبيل الوطن، والأمور ذات البال تفتتح باسم الوطن، والقسم يجب أن يكون بتراب

الوطن. أما الله جل جلاله فليس له مكان يذكر في مقالات هؤلاء وكتبهم وأحاديثهم ..

فإن سمح لله بذكر فعلى سبيل الشركة بينه وبين معبودهم الأهم «الوطن» فيمكن أن تقرأ أو تسمع عملا «لوجه الله والوطن» ودفاعا في سبيل الله والوطن» وافتتاحا لمشروع «باسم الله والوطن» وقسما مؤكدا «بالله والوطن» إلى غير ذلك من العبارات التي حرمها الإسلام وقاومها، لأنها تشوب ما جاء به من التوحيد الخالص، ولأنها تحمل في ثناياها وثنية خفية، ولهذا جاء في الأحاديث الشريفة: «من حلف بغير الله فقد أشرك» «لا يقل أحدكم باسم الله واسم فلان»، «لا يقل أحدكم هذه لله وللرحم» أو «هذا لوجه الله ووجه فلان» إلى غير ذلك مما نُهِى عنه المسلمون.

ومثل ذلك مفهوم «القومية» كما جاءت من الغرب، فهي دين بدل الدين، وإن لم تسم بهذا الاسم.

والكتاب القوميون، منهم من تذهب به الصراحة والجرأة إلى حد إعلان هذه الحقيقة: أن القومية يراد لها أن تكون ديانة إزاء ديانة، وعقيدة تقابل عقيدة، كما قال بعض دعاة «القومية العربية» من العلمانيين الأقحاح بصريح العبارة:

«العروبة نفسها دين عندنا – نحن القوميين العرب، المؤمنين العريقين، من مسلمين ومسيحيين – لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية. مع دعوتها – أي العروبة – إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات» [١].

وبعضهم يؤكد هذه المعاني وإن لم يبرزها هكذا عارية مكشوفة.

وكثير من الكتاب القوميين والوطنيين من هذا الصنف، كما ظهر ذلك في مختلف مجالات الدراسات الإنسانية الأكاديمية، من فلسفة إلى أدب إلى تربية

---

(١) العبارة للأستاذ على ناصر الدين.

إلى اجتماع إلى اقتصاد إلى قانون إلى تاريخ. إلى غير ذلك من ألوان الآداب والعلوم الاجتماعية، والإنسانية. فجل هذه الدراسات كتب من زاوية النظر الغربية، وتحت سلطان المبادئ الغربية، والقيم الغربية. والفكر الغربى، بمدارسه ومشاربه المتنوعة.

ومثل هؤلاء العاملون فى ميادين الفن والصحافة والإعلام، فهم يسيرون فى نفس الخط، خط الفكر الغربى، وإن كان بعضهم لم يجهروا بذلك أو يتخذوا «لافتة» مصرحة بهذا العنوان.

● المحرفون للكلم عن مواضعه:

وأشد هؤلاء العبيد سخفا: هم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا المفاهيم الغربية والقيم الغربية، مستترة تحت أسماء إسلامية، وعناوين إسلامية، محاولين أن يتخذوا لهذه الأفكار الدخيلة سندا من دين المسلمين وتراثهم وتاريخهم، محرفين للكلم عن مواضعه، مبدلين لآيات الله وأحاديث رسوله، وأقوال أئمة المسلمين، على طريقة اليهود الذين فضحهم القرآن بقوله ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٨].

هؤلاء العبيد المحرفون إذا واجهتهم النصوص المحكمة من الدين والوقائع الثابتة من تاريخ المسلمين، سلكوا إلى غاياتهم دروبا ملتوية، وسراديب مظلمة، وأعرضوا عن محكمات الدين والتاريخ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

تجد هذا فى مثل قول بعضهم:

«الدين يتفاعل مع الحياة والعلم، ولقد وجدنا كيف أنه كان فى العام الواحد وأحيانا فى اليوم الواحد - ينسخ حكما بحكم، ويقيم مبدأ مكان آخر،

متبعا في هذا قانون التطور، وهو التغيير والانتقال من صالح إلى أصلح: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

والكاتب يريد هنا للدين – المتفاعل مع الحياة والعلم – أن يكون خادما للماركسية التى تقول بمبدأ (النقيض) – كما يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى – وهو مبدأ يقضى بضرورة الانتقال والتغير فى الوجود كله، كما يقضى بأن الحالة الجديدة دائما أفضل وأصلح من الحالة القديمة للشئ.

ويريد الكاتب أن يتخذ من مبدأ (النسخ) الذى وقع فى أول الإسلام فى بعض الأحكام وقبل أن تستقر الشريعة، سندا لمبدأ (النقيض) الماركسى، كما يريد أن يلوى زمام الآية الكريمة ويقهرها على خدمة المبدأ الماركسى، مع أن قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ لا يحتم أن تكون الآية الأخرى أفضل وأصلح من الأولى على الإطلاق، وبذلك لا تنسجم مع المبدأ الماركسى، على فرض أنه يقصد منها ما أراده الكاتب [1].

ونجد هذا اللون فى كتاب «الإسلام وأصول الحكم [2]» الذى جاء صاحبه بفكرة غريبة عن الإسلام وتاريخه وأهله، فكرة هدم الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، تلك الفكرة التى استقاها من المستشرقين، وتسولها من التفكير الغربى المسيحى القائم، على شطر الإنسان نصفين: جسم وروح، وعلى قسمة الحياة قسمين: قسم لقيصر وقسم لله.

هذا مع أن الإسلام فى شريعته وفى تاريخه كله لم يعرف هذه التجزئة أو القسمة أو المثنوية، لا فى الإنسان ولا فى الحياة، ولم يقر يوما هذا الفصام النكد.

---

(١) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٣٧١.

(٢) مؤلفه على عبد الرازق، قاض شرعى من علماء الأزهر ومن أسرة عبد الرازق المشهورة بمصر، وقد أثار الكتاب غضب المسلمين عامة وعلماء الأزهر خاصة، وقد حوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها بالإجماع فى ٢٢ محرم عام ١٣٤٤ الموافق ١٢/٨/١٩٢٥ وهو يقضى بإخراجه من زمرة العلماء، وذلك يوم كان الأزهر أزهرا، وكان العلماء علماء.

الإنسان فى الإسلام كما هو فى الواقع - الذى يؤيده العلم الحديث - وحدة واحدة غير مجزأة، ولا مشطورة، ولا انفصال بين جسمه، وروحه، فلا معنى لأن يكون هناك جهتان متقابلتان: إحداهما لرعاية جسمه والأخرى لرعاية روحه.

والحياة فى الإسلام - كما هى فى الواقع - وحدة لا تنفصم، يرتبط بعضها ببعض، ويؤثر بعضها فى بعض، فلا مبرر لأن تتوزع شؤون الحياة بين سلطتين مختلفتين: إحداهما توجه الحياة إلى الله، والأخرى إلى قيصر، أى إلى الطاغوت أو الهوى.

إنما الواجب أن توجه الإنسان والحياة سلطة واحدة، وقيادة واحدة، سلطة توجه الإنسان كله، وتوجه الحياة كلها.

والعجب أن نجد المؤلف المستغرب يريد أن يستدل على دعواه المستوردة الدخيلة بمثل هذا الكلام: «القرآن صريح فى أن محمدا ﷺ لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل، ثم هو بعد ذلك صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شئ غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس وأنه لم يكلف شيئا غير ذلك البلاغ ...» ص ٣٧ ثم يقول بلهجة الصوفى الزاهد:

«والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميات، هى أهون عند الله من أن يبعث لها رسولا، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لها» ص ٧٨.

فيا عجبا! كأن الله لم ينزل فى كتابه أطول آية منه لتنظيم شأن واحد من شؤون هذه الدنيا الحقيرة فى نظر الكاتب، وهو كتابة الدَّين وتوثيقه، وهى آية المداينة الشهيرة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ... الآية** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أو كأن الله لم يقل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] كما قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لماذا شرع الله «الزكاة» مثلا وفصل أحكامها وهى من شؤون الدنيا، كما شرع وفصل أحكام الصلاة، وهى من شؤون الدين؟

لماذا فصل الله أحكام المواريث وغيرها وختمها بقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة النساء: الآية الأخيرة.

ولماذا يذكر القرآن مثل هذا التذييل كثيرا: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؟ لماذا علمنا وبين لنا سبحانه، ولم يدعنا لما ركب فينا من عقول، وحبانا من عواطف وشهوات؟ والعجيب هنا أنه جعل العواطف والشهوات تهدى كما تهدى العقول!!

وإذا كان ما ركب فى الناس من عقول كافيا فى تدبير أمر الحياة على ما يحبه الله، فلماذا لم يتركهم لعقولهم؟ ولماذا أرسل الرسل وأنزل الكتب؟ ولم كل هذا الاهتمام بالإنسان، وهو شئ صغير من مخلوقات هذه الدنيا الحقيرة؟

لماذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...﴾ [الحديد: ٢٥] مما دلنا على حاجة الناس إلى ما أنزل الله تعالى، ليهتدوا به فى إقامة القسط بين الناس.

ولماذا قال سبحانه لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] لماذا أنزل كتابه بهذا الوصف: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولم يدعهم لعقولهم تدبر أمرهم وحدها.

هذا هو منطق هؤلاء النفر، الذين يريدوننا أن نطرح شريعتنا، وننكر تاريخنا، وننسلخ من شخصيتنا، ونتنكر لحضارتنا؛ ليرضى عنا السادة الغربيون،

ويثنى على «تحررنا» المبشرون والمستشروقون، وينوه بجهودنا التقدميون الثوريون!!

وأعجب ما فى هؤلاء المستعبدين للغرب، أنهم يميلون مع الريح حيث مالت، ويدورون مع السلطة حيث دارت، فإن كانت الريح فى اتجاه «الديموقراطية» ظلوا يبدئون ويعيدون فى ديمقوقراطية الإسلام، والحديث عن سلطة الأمة، ومبدأ الشورى فى نظام الإسلام.

وإن كانت الريح فى اتجاه «الرأسمالية» ألبسوها جبة وعمامة، وركزوا حديثهم عن الحرية الاقتصادية والملكية الفردية فى الإسلام، وتفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق، ووقفوا يتمحلون ويتأولون آيات تحريم الربا وأحاديثه، ليبرروا جور الرأسمالية وفسادها.

فإذا كسدت سوق الرأسمالية، وراجت بضاعة الاشتراكية انتقلوا، ونقلوا معهم الإسلام - المفترى عليه - بسرعة وخفة، من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ومن اليمين إلى اليسار، وفرخوا فتاوى جديدة، ليسوغوا بها مصادرة الأموال وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

وهكذا يريد هؤلاء أن يجعلوا الإسلام - حيث جعلوا أنفسهم - عبدا خادما للسلطة والقوة، وتابعا يسير فى ركاب الدولة الغالبة، مهمته أن يبارك ما تصنع، ويؤيد ما تتخذ من خطوات.

والإسلام شأنه أن يقود لا أن يقاد، وأن يسود لا أن يساد، لأنه كلمة الله، وكلمة الله هى العليا أبدا.

● **ببغاوات تدعى الثقافة:**

والعجيب أن عبيد الفكر الغربى يدعون سعة الثقافة وغزارة المعرفة، ورحابة الأفق، ويسميهم الناس - ويسمون أنفسهم - «مثقفين» وربما أضيف إلى بعضهم لقب آخر، فسموا «مثقفين ثوريين» وهم مع هذا لا يعرفون شيئا صحيحا عن الدين الذى ينتسبون إليه أو - على الأقل - تنتسب إليه شعوبهم، وعاش به

ومات عليه آباؤهم وأجدادهم. ولا أدرى كيف يعد المرء «مثقفا» وهو أجهل الناس بدين قومه وحضارة أمته، وتراثها الفكرى والروحى الذى يعطيها مشخصاتها ومقومات وجودها؟.

وكل ما يعلمه هؤلاء «المثقفون» عن الإسلام وحضارته، أشياء تافهة أو مشوهة أو محرفة، لقنها لهم سادتهم وأساتذتهم المستشرقون والمبشرون بالنصرانية أو الماركسية، فآمنوا بها قضايا مسلّمة لا تقبل الريب أو الجدل، فهم فى الحقيقة ببغاوات لا تجيد غير الترديد والمحاكاة لما تلقنه من أقوال وأفكار، غير أنها - والحق يقال - تفوق الببغاوات بقدرتها على ترجمة تلك الأقوال والأفكار من لغتها الأجنبية إلى لغتها القومية، وبالجرأة فى تبنى تلك الأفكار الدخيلة، وإنكار نسبها إلى آبائها الأصليين!

• ما فكرة هؤلاء عن الدين؟

إن الدين عندهم عدو للحياة والتقدم، عدو للعلم والفكر، عدو للحرية وللطبيعة، عدو للإنسان وسعادة الإنسان.

والدولة عندهم يجب أن تنفصل عن الدين، حتى لا يعوق سيرها، ويعرقل تقدمها، ويفسد خططها برجال كهنوته.

فيا عجبا .. عن أى دين هؤلاء يتكلمون؟ إنهم قرأوا وسمعوا هذه العبارات عن الدين هناك - فى الغرب - فرجعوا يرددونها بعينها «هنا» فى الشرق المسلم، والدين هنا غير الدين هناك، وتاريخ الدين ورجاله هنا غير تاريخه ورجاله هناك، بل الإله الذى نؤمن به هنا غير الإله الذى كفر به القوم هناك.

فإذا قلنا لهم: يا قوم، إن الإسلام غير المسيحية، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت، والقرآن غير الكتاب المقدس، فغروا أفواههم دهشا، أو لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون!

• نموذج مجسد لهذه الصفات:

لنستمع إلى أحد هؤلاء، يقول محرضا على عقيدة الإسلام، وفكرة الإسلام

.. إنه يقرر فى جرأة متحدية لعقائد الأمة ومشاعرها، استنادا إلى قوة الغرب الذى صنعه على عينه هناك، وبعثه لتخريب أوطانه هنا (١).

«إنه منذ مائتى عام أدرك الثوريون فى الغرب أن الثورة تعنى تحرير المجتمع من الدين، ولكن الفكر العربى الثورى لا يزال يتجاهل هذا الواقع تجاهلا تاما!.

«فى بداية العهد الثورى الجديد - بداية الثورة الفرنسية - حدد «بريسو» هذا الطابع الثورى العام، عندما وقف فى الجمعية العامة، وأعلن: إن عدونا الأول ليس الأرستقراطية، وليس الملك، وليس الكنيسة. بل هو - أولا - الدين الذى يقف وراء الملك والأرستقراطية، وفى اجتماع شعبى عام أثناء تلك الثورة أخذ «شاليه» الصليب وداسه فى الأرض، وصرخ فى الجماهير: «إن الاستبداد بالجسد قد تكسر، والآن يجب أن نحطم الاستبداد بالأرواح» (٢).

ألست تعجب معى أيها القارئ الحر من هذه الحيثيات والأسباب التى يقدمها الكاتب التقدمى، لتجريد المجتمع العربى من دينه - الإسلام - والحكم عليه بالإعدام؟!

إن هذا الكاتب الثورى يطالبنا أن نطرد كل أثر للدين فى حياتنا، وكل حجته: أن الثوريين فى الغرب فعلوا ذلك منذ ٢٠٠ سنة!!

وأى سلطة تستطيع أن تلزمنا بوجوب اتباع الثوريين فى الغرب، وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا؟!.

ثم أى منطق هذا الذى يجتر أفكار الملحدين فى القرن الثامن عشر، ويدعو

---

(١) إنه د. نديم البيطار، الذى عرف نفسه على غلاف كتابه «الفعالية الثورية فى النكبة» بأنه تلقى علومه العالية فى فرنسا والولايات المتحدة وحاز أكثر من دكتوراه فى العلوم الاجتماعية والسياسية، ثم قام بتدريس هذه العلوم خلال سنوات ست فى جامعات الولايات المتحدة، وكندا، وقد عاد إلى لبنان ليتفرغ للنتاج الفكرى و«النتاج الفكرى» معناه: تخريب مقومات الأمة العربية خدمة للصهيونية والصليبية والشيوعية الدولية.

(٢) ص ١٥٨ من كتاب «من النكسة إلى الثورة» لنديم البيطار، وهو أسوأ كتاب صدر بعد نكبة يونيو (حزيران) ٦٧ وقد رد عليه جلال كشك فى كتابه «النكسة والغزو الفكرى».

إليها ويعتبرها وحيا معصوما، وهو الذى يزعم التحرر والتقدمية، جاهلا أو متجاهلا، أن الغرب نفسه بات ينقد تلك الأفكار، ويتحرر منها؟

أجل، أصبحت الكثرة من علماء الغرب ومفكريه وزعمائه، ينادون بالعودة إلى الإيمان، ويرفضون المذهب المادى الذى لقى رواجا فى القرن الثامن عشر فى أوربا، لظروف تخص القوم هناك.

يقول أشهر العلماء بالكون وظواهره فى عصرنا «اينشتين»:

«إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى، وأنبل حافز» [1].

«إن الدين عامل من عوامل التقدم، وإنه قوة روحية خلاقة لتغيير المجتمع، وإيجاد جمعية إنسانية متآخية» [2].

ومما نقل إلى العربية من الكتب الغربية التى تنقض المادية وتتجه إلى الدين، ثلاثة كتب قيمة:

أولها: كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» [3]، للعلامة أ. كريسى مورسون رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك، والذى نقض فيه كتاب المادى الملحد «جوليان هكسلى»: «الإنسان يقوم وحده» أى بدون حاجة إلى إله!

وثانيها: كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» وهو مجموعة مقالات قيمة لثلاثين عالما أمريكيا فى مختلف التخصصات العلمية والإنسانية، بين كل منهم فى مقاله كيف اهتدى إلى الله عن طريق علمه.

وثالثها: كتاب «العودة إلى الإيمان» ومؤلفه الدكتور «هنرى لنك» أحد

---

(١) كتاب «مع الله فى السماء» للدكتور أحمد زكى.
(٢) كتاب «الإنسان العقائدى» للأستاذ حمدى حنبل.
(٣) ترجم إلى العربية بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

أفذاذ الطب النفسى فى أميركا. وقد طبع هناك فى مدة غير بعيدة ٤٧ (سبعا وأربعين طبعة).

لماذا إذن يبرز هؤلاء الوجه الإلحادى فى الغرب دون الوجه الآخر؟

أليس فى الغرب – إلى اليوم – (أحزاب مسيحية) تتبعها وتؤيدها جماهير غفيرة من المواطنين هناك؟ في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا وغيرها، وقد تولى بعضها الحكم أكثر من مرة؟

أليس للبابا مكان مرموق، ولكلمته أثر عميق؟ كما تجلى ذلك فى جولات البابا الحالى (يوحنا بولس الثانى).

أليس كثير من دول أوروبا ينص فى دستوره على المذهب الذى تعتنقه، فضلا عن الدين؟

أليست فرنسا حامية الكثلكة؟ وأمريكا حامية البروتستانتية؟

أليس لدول أوربا وأمريكا جيوش من المبشرين [١] يعملون باسم المسيح فى أفريقيا وآسيا، وغيرهما من قارات العالم؟

أليس هناك (مسيحية أصولية) نشطة متحمسة مساندة للصهيونية وأهدافها، نراها فى أمريكا خاصة وفى الغرب عامة؟

ثم ما قول هؤلاء فى مثل صارخ قريب يصم آذانهم؟ إنه « إسرائيل » التى هزمت جيوش مجموعة من الدول الثورية العربية المتحررة! فى أيام، بل فى ساعات، وللدين فى إسرائيل – قبل قيامها وبعد قيامها – مكان أى مكان.

ثم نعود إلى منطق الكاتب الثورى التقدمى ومغالطاته، إلام يدعو بمنطقه « العلمى »؟! اسمعوا واحكموا.

---

(١) قدرتهم أحدث الإحصاءات بنحو ٤٧٥٠٠٠٠ (أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألفا) من المبشرين والمبشرات.

يجب أن يعدم الإسلام فى الشرق، من أجل جرائم المسيحية الكاثوليكية فى الغرب.

الدين هناك وقف وراء الأرستقراطية والملوك ضد الشعوب والمظلومين، واعتبر إرادة الملك - مهما يكن ظالما - من إرادة الله، كما اعتبر معارضة الملك خطيئة ومروقا من الدين!

ولكن الدين هنا يقول: ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ [هود: ١١٣]، مجرد الركون والميل إلى الظلمة ينهى عنه كتاب الإسلام، ويجعله من موجبات العذاب! ويقول الرسول ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» [١].

«إذا رأيت أمتى تهاب، فلا تقول للظالم يا ظالم، فقد تودع منهم» [٢].

الدين عندنا يحرض الأتباع المستضعفين على التحرر من التبعية، والخضوع للسادة الكبراء، ويحملهم تبعة الخضوع الذليل فى الدنيا والآخرة ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

الدين عندنا يعلم المسلم أن يقول فى قنوته مناجيا ربه إذا أوتر آخر صلوات يومه، ما رواه ابن مسعود مرفوعا: «نشكرك اللهم ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك» بهذه العبارة القوية «نخلع ونترك من يفجرك»؟

لقد أعلن الثوار فى فرنسا تحطيم الاستبداد بالأرواح، كما كسروا الاستبداد بالأجسام، وثاروا على الطبقة الكهنوتية، التى كانت تحتكر الوساطة بين الله

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن أبى بكر، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٩٧٣).

(٢) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى عن عبد الله بن عمرو (٤ / ٩٧).

وعباده، وتبيع الجنة والمغفرة لمن تشاء، وتحرم منها من تريد. فما ذنب دين ليس فيه كهنوت ولا سماسرة بين الله وخلقه؟ ويستطيع كل مؤمن أن يلج باب الله بغير حاجة إلى كاهن ولا حاجب ولا بواب؟: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لقد داس الثوار (الصليب) رمز الاستبداد بالأرواح، فما ذنب دين لا صليب فيه، ولا استبداد بالأرواح؟

قال أحد الثوار هناك: «لقد بكى الشعب طويلا على إلهه، وآن له أخيرا أن يبكى على نفسه! فما ذنب دين لم يقتل إلهه، ولم يصلب، ولم يبك عليه أحد؟! كيف يراد منا أن نتخلى عن ديننا من أجل أخطاء دين آخر؟!

كان شعار الدين هناك: اعتقد وأنت أعمى! وشعار الدين عندنا: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [النمل: ٦٤].

كان نداء رجال الدين عندهم: أغمض عينيك ثم اتبعني! ويقول المحققون من علمائنا: إن إيمان المقلد غير معتبر ولا مقبول، لأن التقليد لا يخرج المؤمن من الجهل إلى العلم، إذ العلم هو معرفة الحق بدليله، حتى يكون على بصيرة من أمره، وعلى بينة من ربه.

قال الإمام ابن الجوزى (١): «إن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفى التقليد إبطال منفعه العقل، وقبيح بمن أعطى شمعة أن يطفئها ويمشى فى الظلمة»!.

كان من أشهر الحكَم عندهم: الجهالة أمّ التقوى! وكان من أشهر الأحاديث النبوية عندنا «طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢)» وأجمع علماؤنا أن المراد بالمسلم هنا: الإنسان المسلم، سواء كان ذكرا أم أنثى.

---

(١) فى كتابه تلبيس إبليس.

(٢) رواه ابن ماجه وابن عبد البر والبيهقى وغيرهم عن أنس، ورمز له السيوطى فى جامعه بعلامة الصحة، كما رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد، وروى أيضا =

● **المسيحية والعلم :**

لقد ذكر الكاتب التقدمى نفسه فى كتاب آخر له موقف المسيحية من العلم والبحث العلمى فقال :

« جمدت المسيحية النشاط العلمى وألغته فى القرون الوسطى، واستمرت تعثر تقدمه، وتحول دونه، حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

« إن الكنيسة - كاثوليكية وبروتستانتية - حاربت كل علم باسم سلطة التوراة المعصومة من الخطأ، لأن العلوم تلك كانت تحمل دائما نتائج لا تنطبق مع تعاليم التوراة . فالكنيسة مثلا حاربت الطب حربا عنيفة، لأن أمراض الإنسان لا تأتيه من أسباب ترجع إلى طبيعته، بل هى من عمل الشيطان ولهذا، فإن معالجتها، من أوجستين إلى لوثر، وجب أن تعتمد على طقوس الكنيسة » .

« وكانت الكيمياء أيضا عملا شيطانيا، فكان من يعمل بها أو فى الطب، معرضا لتهمة السحر » .

بيَّن « اندروهوايت » فى دراسته الكلاسيكية فى تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت فى المسيحية : أن رجال الدين حاربوا كل خطوة تقدمية فى العلم والبحث العلمى أثناء التسعة عشر قرنا الماضية » .

« كانت الكنيسة فى كثير من الأحيان - وخصوصا فى القرن الرابع عشر تأمر بحرق كل ما كتب فى اللغات المحلية باعتبارها خارجة عن الدين . لم يقتصر الحرق على الكتب، فمن حرق « هوس » ورفاقه إلى حرق (برونو) جعلت الكنيسة - حسب قول جورج - النيران تأكل زهرة علماء المسيحية » (١) .

هذا هو موقف المسيحية الغربية من العلم والعلماء، من الطب والكيمياء،

= من حديث ابن عباس وابن عمر وعلى وابنه الحسين، رضى الله عنهم . وصححه الألبانى فى تخريج أحاديث كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) .

(١) عن كتاب « الأيديولوجية الانقلابية » لنديم البيطار ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

وغيرها من العلوم التجريبية، كما ذكره الكاتب التقدمى نفسه، وكما أثبته غيره من المؤلفين فى الشرق والغرب. فأين هذا من موقف الإسلام؟!

● موقف الإسلام من العلم:

لقد اعتبر رسول الإسلام التجربة هى الفيصل فى الأمور الدنيوية الفنية، كالزراعة والصناعة والطب ونحوها. وجاء فى ذلك حديثه المشهور: «أنتم أعلم بأمر دنياكم (١)» وذلك بعد أن أبدى لأصحابه رأيا خاصا فى تلقيح النخيل، فسارعوا إلى تنفيذه يحسبونه جزءا من الدين، فكانت النتيجة على غير ما يحبون، فقال لهم: «إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وفى الطب نجد أنه - ﷺ - تداوى، وأمر بالتداوى (٢) وأرسل طبيبا إلى أبى بن كعب (٣) يقطع له عرقا وكواه عليه، أى أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتى الحارث بن كلدة، الطبيب العربى المشهور من ثقيف (٤).

وأصيب أحد أصحابه بجرح، فاحتقن الدم، فدعا رجلين من بنى أنمار، فنظرا إليه، فسألهما رسول الله ﷺ: «أيكما أطب؟ فقال: أو فى الطب خير يا رسول الله؟ فقال: أنزل الدواء الذى أنزل الداء» (٥).

قال ابن القيم: فى هذا الحديث أنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب» (٦).

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه من حديث عائشة وطلحة.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ج٤ ص١٠ طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

(٣) رواه مسلم من حديث جابر برقم (٢٢٠٧).

(٤) رواه أبو داود فى الطب (٣٨٧٥) عن سعد، قال: مرضت مرضا أتانى رسول الله ﷺ يعودنى، فوضع يده بين ثدييّ، حتى وجدت بردها على فؤادى، فقال: «إنك رجل مفؤود (أى مصاب فى فؤادك، ولعله مصدور، كنى بالفؤاد عن الصدر) إئت الحارث بن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب».

(٥) رواه مالك فى موطئه عن زيد بن أسلم، وهو مرسل. (٦) زاد المعاد ج٤ ص١٣٢.

وكانت الفكرة السائدة عند الناس حينئذ أن العلاج وطلب التداوى، وتعاطى الطب ينافى التدين أو التوكل أو الإيمان بالقدر. كما يبدو ذلك من جملة روايات وأحاديث.

فقد روى أنه ﷺ - دخل على مريض يعوده، فقال: «أرسلوا إلى طبيب»، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم. إن الله لم ينزل من داء إلا أنزل له شفاء» (١).

وفى هذا المعنى جاءت عدة أحاديث صحيحة، كقوله - فيما رواه مسلم: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل» (٢).

وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «نعم، يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم (٣)» أى الشيخوخة. وفى حديث آخر: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» (٤).

ولما سأله بعضهم: هل ترد الأدوية قدر الله؟ أجابه أبلغ جواب وأروعه وأحسمه فقال: «هى من قدر الله (٥)» أى أن الأسباب من قدر الله وكما أن المسببات كذلك.

وبهذا الجواب حل العقدة التى تعرض لكثير من المتدينين من قديم، حيث يظنون أن فى التداوى منافاة للإيمان بقدر الله.

وأبطل اللجوء إلى السحر والسحرة والدجالين، واستعمال التمائم ونحوها، وجعل ذلك من أنواع الشرك، كما حذر من أدعياء الطب الذين يدعون المهنة،

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٣٣.
(٢) رواه مسلم عن جابر برقم (٢٢٠٤).
(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك، كما في صحيح الجامع الصغير رقم (٢٩٣٠).
(٤) رواه الحاكم عن أبى سعيد، المصدر السابق (١٨٠٩).
(٥) رواه أحمد والترمذى من حديث أبى خزامة أو ابنه.

وليسوا من أهلها، وحملهم تبعة خطئهم فى التشخيص والعلاج فقال: «من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن» (١).

وقد كان للطب فى الحضارة الإسلامية شأن أى شأن، فكان هناك أطباء عالميون مثل الرازى وابن سينا والزهراوى وابن رشد وابن النفيس، وكانت كتبهم الطبية مراجع للعالم لعدة قرون، مثل القانون لابن سينا، والحاوى للرازى، والكليات لابن رشد.

والعجيب أن نجد فى هؤلاء من جمع بين الإمامة فى الدين والإمامة فى الطب مثل ابن رشد، والفخر الرازى، وابن النفيس.

هذا بالنسبة للطب. أما بالنسبة لسائر العلوم فقد طلب المسلمون العلم فى كل صقع من الأرض، واشتهر فيهم القول «اطلبوا العلم ولو بالصين» حتى جعله بعضهم حديثا (٢)، وانتفعوا بالتراث العلمى للأمم السابقة، وإن حكموا عليها بانحراف العقيدة، وضلالة الديانة، عملا بما روى عن رسولهم: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها» (٣). بل علمهم أن الحكمة يمكن أن تؤخذ من الشيطان نفسه، كما فى حديث النبى لأبى هريرة «صدقك وهو كذوب» (٤).

فسح الإسلام صدره للحكماء والمفكرين من كل جنس، وفتح ذراعيه للعلماء والمجربين من كل ملة، لهذا اشتهر فى تاريخ المسلمين عدد غير قليل من الأطباء والتجريبيين من اليهود والنصارى كانت لهم حظوة عند الخلفاء ورجال الدولة (٥).

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمر، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٦١٥٣).

(٢) رواه ابن عبد البر فى كتاب «العلم» والصواب أنه ليس بحديث.

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه. وهو ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه. وانظر: كتابنا (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق).

(٥) اقرأ فى ذلك «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة» للشيخ محمد عبده.

ولم يعرف تاريخ الإسلام صراعا بين العلم والدين، أو بين الشريعة والحكمة، أو بين العقل والنقل. بل أكد علماؤه: أن النقل الصحيح لا يمكن أن يخالف العقل الصريح، وأن العلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا يمكن أن يتناقضا إلا إذا كان ما ظنه الناس دينا ليس من الدين الصحيح، أو ما ظنوه علما ليس من العلم الصريح (١).

ومن هنا كانت حضارة الإسلام هى الحضارة الوحيدة التى جمعت بين العلم والإيمان، ولم تجد أى حرج فى الجمع بين نظرات العقل، وإشراقات القلب.

وهذا ما شهد به كثير من مؤرخى الغرب ومفكريه المنصفين.

يقول المستشرقان: بترانت وتومس فى كتابهما (العرب):

« إن الإسلام لم ينابذ التقدم، بل سار جنبا إلى جنب مع العلم، وإن تقدم حضارته يرجع إلى ملازمته للعلم » (٢).

وينقل توماس أرنولد فى كتابه: « الدعوة إلى الإسلام » عن البروفسور مونتيه قائلا:

« الإسلام فى جوهره دين عقلى بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى بأنه طريقة تفهم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق - ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. والحق أن محمدا الذى كان متحمسا لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ونار الاقتناع - تلك الصفة التى بثها فى كثير من أتباعه - قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام. على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلاقات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل .. وإن بساطة هذه التعاليم

---

(١) ألف فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه « درء تعارض العقل والنقل » الذى نشر قديما بعنوان « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ».

(٢) انظر كتاب « الإنسان العقائدى » ص ١٨٨ للأستاذ حمدى حنبلى.

ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام » .

ونحن نرفض – قطعا – كلام مونتيه عن الوحى المحمدى، ولسنا فى مجال مناقشته هنا، ولكن الذى يهمنا الاستشهاد به فى هذا الموطن هو اعترافه الجازم بأن دين الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة . وإنه مجموعة عقائد قامت على أساس المنطق والعقل، مما يرد بوضوح على أولئك الذين يحسبون الإسلام مسيحية أخرى، قامت على أساس التقليد ورفض العقل والتفكير .

وقد كتب كثير من الغربيين بحوثا ضافية، وألفوا كتبا كاملة، فى مكانة العلم والعلماء، فى الحضارة الإسلامية، وعن تأثير ذلك فى نهضة الغرب وحضارته، ولعل أقرب ما طالعناه فى هذا الشأن، كتاب المستشرقة الألمانية « سيجريد هونكه » التى سمته « شمس الله تسطع على الغرب » وعرب تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » .

فإن كان هؤلاء التقدميون لا يقنعهم إلا ما جاء عن الغرب، فهذه شهادة الغربيين !

هذا وقد كتبنا فى هذا المجال عدة كتب : الرسول والعلم، والعقل والعلم فى القرآن .. السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ... الدين فى عصر العلم .. فليرجع إليها من شاء ..

● **المسيحية والحياة :**

ولقد ذكر هذا التقدمى سر موقف الثوريين والانقلابيين فى الغرب ضد الدين منذ الثورة الفرنسية بهذه العبارات :

« فإن المجتمع يحتاج إلى حيوية ونشاط وفضائل اجتماعية، ولكن الدين يبشر – على نقيض ذلك – بتقشف كبير، وبحياة أخرى تلغى أهمية أو قيمة هذه الحياة . جميع تعاليمه تتناقض مع تعاليم العقل والعلم، وتفرض على

الإنسان أن يعمل فى سبيل نجاة روحه فى الدنيا والآخرة. وبذلك تنقض فروض طبيعته، الإنسانية التى تلزمه بالحياة الأرضية.

« وهو يقف بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية الأنانية التى تضر بمصلحة المجتمع كله، أكد الفلاسفة جميعهم تقريبا - وفى طليعتهم هو بساخ، وفولتير، ومورلى زمابلى، وروسو وكوند ورسه، وديدرو - على هذه الناحية، وبعضهم - كفولتير - تكلم فى الواقع عن مؤامرة ضد المجتمع استخدمت الدين كى تحقق أغراضها.

كان الدين، مؤامرة جافة صفيقة، لدرجة يصعب عندها إدراك ظهوره أو استمراره فى التاريخ، يعيش أشد أنواع الاستبداد، استبداد الكهنة والملوك »[1].

هذا الكلام - على ما فيه من غلو وتحامل ضد المسيحية نفسها - هو أبعد ما يكون عن الانطباق على حقيقة الإسلام وتاريخه.

● الإسلام والحياة:

لم يدع الإسلام إلى التقشف والإعراض عن الطيبات، ولم يلغ أهمية الحياة أو قيمتها، بل أنكر بشدة على الذين يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وقاوم بقوة نزعة بعض المسلمين إلى التشدد والتقشف اقتداء برهبان النصارى ومن علي شاكلتهم ، وأنزل في ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾ [المائدة: ٨٧ - ٨٨].

كما أنكر الرسول ﷺ على الذين اعتزلوا الحياة صائمين قائمين مترهبين،

---

(١) الأيديولوجية الانقلابية لنديم البيطار ص ٧٣٧.

قائلا «إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، وأنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[١].

وكان الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، مثلا حية للجمع بين العمل الدائب للدنيا والإقبال الكامل على الآخرة. فلم تلههم دنياهم عن آخرتهم، ولم تعقهم آخرتهم عن عمارة دنياهم. حتى جاء حديث الرسول «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها[٢].!!

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، ولن ينتفع بها أحد، لا هو ولا غيره، إنه تعبد بالعمل، وتكريم للعمل ذاته، ليظل المسلم منتجا معطاء، حتى آخر رمق فى الحياة.

وليس فى تعاليم الإسلام حكم واحد يناقض العقل والعلم، كما بينا، فضلا عن أن تكون جميع تعاليمه كذلك. وإذا كان يفرض على الإنسان العمل لنجاة روحه، فهو لم يغفل دعوته إلى العمل لصحة بدنه وقوته، وسعادة دنياه، فأعلن رسوله «إن لبدنك عليك حقا »[٣] وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام ما جاء فى القرآن: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [البقرة: ٢٠١].

إن الإسلام لم يعاد الحياة المادية، ولم يلغ قيمة الحياة الأرضية، كما فعلت أديان أخرى. وكيف يعادى الحياة دين يبيح المحظورات عند تحقق الضرورات، ويسقط الفرائض أو يخففها عند وجود الأعذار المادية من المرض والسفر والمشقة ونحوها؟،

هل يوصف بإلغاء الحياة الأرضية دين كان أبرز الصفات التى وصف بها

---

(١) الحديث متفق عليه عن أنس.

(٢) رواه أحمد فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس.

(٣) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

نبيه عند أهل الكتاب أنه: ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يأمر بإعداد أقصى المستطاع من القوة، وأخذ الحذر والاحتياط واتخاذ الأسباب، ورعاية السنن الكونية، وتجنب ما يؤدى إلى الضرر والهلاك؟ فتقرأ فى كتابه مثل هذه الآيات: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ [النساء: ٧١] ﴿ **وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿ **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء: ٥].

هل يوصف بإلغاء الحياة دين يقول نبيه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» (١) «إن الله جميل يحب الجمال» (٢) «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» (٣)؟!

هل يوصف بإلغاء الحياة دين قامت شريعته على درء المفاسد عن البشر، وتحقيق المصالح لهم. سواء كانت تلك المفاسد مادية أم معنوية، واقعة على الفرد أم على الجماعة. وسواء كانت هذه المصالح البشرية، حاضرة أم مستقبلة، وسواء أيضا أكانت من الضروريات أم من الحاجيات أم من التحسينات والكماليات.

والضروريات هى الكليات الخمس التى لا تقوم الحياة إلا بها، وهى - كما

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى عن عمرو بن العاص، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٢، ٣٥٣): رجالهما رجال الصحيح، كما رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود.

(٣) رواه الترمذى والحاكم عن عبد الله بن عمرو، ورمز له السيوطى بعلامة الحسن. وهو كذلك فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٧).

ذكر أئمة الأصول – حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل. وأضاف بعضهم إليها: العرض.

وهذه الضروريات الخمس أو الست هى مناط الحقوق الرئيسية للإنسان، فحفظ الدين معناه: حفظ العقيدة والعبادة والقيم الأخلاقية، وحق الإنسان فى الإيمان والتدين، وعدم إكراهه على دين لا يختاره طائعا. وحفظ النفس معناه: حفظ حق الحياة للإنسان وحقه فى صحة بدنه، وفى تغذيته إذا جاع، وعلاجه إذا مرض، وراحته إذا تعب، والقصاص إذا اعتدى عليه. وحفظ العقل معناه: حماية حق التعلم والثقافة وحرية الفكر والنظر. وحفظ المال معناه: حماية حق الملكية المشروعة من كل عدوان بالباطل. وحفظ النسل معناه: حماية الأمومة والطفولة والأسرة التى هى نواة المجتمع وأساس بنيانه. وحفظ العرض معناه: حماية حق الكرامة والسمعة.

والإسلام لا يقف – ولم يقف – بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية الأنانية. إنه يربى أبناءه على مناوءة الاستبداد والانحراف والفساد، بالقوة المادية إن استطاعوا، وإلا فالبرأى والكلمة، ويعد ذلك من أفضل الجهاد: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (١) «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» (٢).

فلم يقصر الجهاد على محاربة الغزو الخارجى، بل جعل أفضله مقاومة الفساد الداخلى، فإنه أشد ضررا على الأمة من غزو العدو الخارجى، وهو الذى يمهد له، ويجعلها فريسة سهلة المنال لأعدائها المتربصين بها.

فلا عجب أن كان الطابع العام لموقف علماء الإسلام طوال تاريخه هو الوقوف فى وجه الظلمة المستبدين المترفين من الملوك والحكام. ومنهم من عانى

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن أبى أمامة، وأحمد والنسائى فى الشعب والبيهقى عن طارق بن شهاب، وابن ماجه عن أبى سعيد، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (١١٠٠).

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٦٧٥).

فى سبيل ذلك السجن والاضطهاد، ومنهم من حمل السلاح، مقاتلا للطغاة والمستكبرين.

أما استبداد الكهان فلم يعرفه تاريخ الإسلام، لأن هذه الطبقة لم توجد فيه أصلا، فإذا كان الثوريون فى الغرب منذ الثورة الفرنسية وقفوا ضد الدين هناك - لأنه يدعو إلى تقشف كبير، ولأنه يلغى أهمية هذه الحياة، ولأن تعاليمه الكنسية تناقض العلم والعقل كما تناقض الطبيعة الإنسانية، ولأنه يقف بأخلاقيته مؤيدا للمصالح الاستبدادية: استبداد الملوك واستبداد الكهان - فما حجة الثوريين فى أوطاننا لكى يقفوا ضد دين يحترم الحياة، ويعترف بفطرة الإنسان، ويهتم بالدنيا، ويدعو إلى العقل والعلم، ويحث على الغنى والقوة، ويجعل مقاومة الظلم والاستبداد من أجلّ أنواع العبادة والجهاد؟

إننا ندعو هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم الثقافة الواسعة أن يقرأوا ما كتبته الأقلام المؤمنة الواعية الأصيلة المعاصرة عن الإسلام، عقيدة وشريعة وفكرا وأخلاقا حضارة متكاملة؛ من عصر الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا إلى اليوم.

أجل نحن ندعو هؤلاء أن يدرسوا الإسلام، حتى لا يتهوروا فى الحكم عليه بأحكام خاطئة جاهلة، لا تمت إلى حقيقته بنسب ولا سبب، كهذا الذى قال فى غرور وادعاء، طاعنا فى نظام الإسلام: «الاشتراكية نظام لا يقوم على الإحسان والزكاة، بل يقوم نفسه نتيجة حتمية لطبيعة المجتمع الحديث، وطبيعة القوانين التى تسود تحولاته» (١).

وبغض النظر عن «الكليشهات» الماركسية، عن الحتمية والمجتمع الحديث وتحولاته - هل نجد فى هذه العبارة أى فهم لنظام الإسلام وموضع الزكاة منه؟ لا، ثم لا.

ومنذ سنوات كتب كاتب اشتراكى تقدمى آخر: إن الزكاة لا تصلح فى مجتمع عصرى يقوم على العمل والإنتاج، لا على الصدقات».

---

(١) عن كتاب «من النكسة إلى الثورة».

هؤلاء الكتاب لقنوا أن الزكاة الإسلامية ضرب من الصدقات الاختيارية، والإحسان الفردى، فراحوا يرددون ما قيل لهم، دون أن يجشموا أنفسهم قراءة كتاب واحد فى الموضوع.

ولست فى مقام الرد علي هؤلاء وبيان حقيقة الزكاة، فلهذا مجال آخر(١)، ولكننى أكتفى هنا بنقل نص واحد من أحد كتبنا الفقهية القديمة الشهيرة، نستبين منه طبيعة الزكاة فى الإسلام، وهذا الكتاب هو «المهذب» للشيرازى وشرحه «المجموع» للنووى.

يقول الكتاب: «ومن وجبت عليه الزكاة وقدر على إخراجها لم يجز له تأخيرها، لأنه حق يجب صرفه إلى الآدمى، توجهت المطالبة بالدفع إليه، فلم يجز له التأخير، كالوديعة إذا طالب بها صاحبها.. فإن أخرها وهو قادر على أدائها ضمنها، لأنه أخر ما يجب عليه مع إمكان الأداء، فضمنه كالوديعة.. ومن وجبت عليه الزكاة وامتنع من أدائها نظر: فإن كان جاحدا لوجوبها فقد كفر، وقتل بكفره كما يقتل المرتد، لأن وجوب الزكاة معلوم من دين الله تعالى ضرورة، فمن جحد وجوبها، فقد كذب الله وكذب رسوله ﷺ فحكم بكفره.. وإن منعها بخلا بها أخذت منه وعزر (أى أخذتها السلطة الشرعية منه بالقوة وعوقب عقوبة تأديبية تقدرها العدالة) وقال (الشافعى) فى القديم: تؤخذ منه الزكاة وشطر ماله (أى نصفه) لما روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله، عزمة من عزمات ربنا، ليس لآل محمد منها شئ(٢).. وإن امتنع بمنعة قاتله الإمام، لأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل مانعى الزكاة» (٣) انتهى.

---

(١) راجع كتابنا «فقه الزكاة» فمن لم يستطع، يكفيه أن يقرأ ما كتبناه عن الزكاة في كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام».

(٢) الحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي كما رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وقد دافع عنه ابن القيم في (تهذيب السنن ٢ / ١٩٤) دفاعا قويا. انظر: كتابنا (فقه الزكاة) ج ٢ ص ٨٢٦ – ٨٢٨ وما بعدها. الطبعة الحادية والعشرين – نشر مكتبة وهبة.

(٣) المجموع ج٥ ص ٣٣١، ٣٣٢.

إنى أخشى أن أعلق على هذا النص المشرق، فأنقص من قوة دلالته وإيحائه. ولكنى أسأل فقط: أهذا صدقة إحسان، تلك التى تطالب بها الدولة، وتحكم بالردة على من أنكرها وجحدها، وتأخذها بالقوة ممن منعها، وتفرض عليه عقوبة قد تصل إلى مصادرة نصف ماله لخزانة الدولة، وتتدخل الدولة بقواتها المسلحة لقتال من منع هذه الفريضة وكان له شوكة ،ومنعة، اقتداء بما صنعه أبو بكر رضى الله عنه فى حرب مانعى الزكاة – حين قال كلمته المشهورة «لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه» وسانده فى ذلك الصحابة الكرام.

● **موقفنا من عبيد الفكر الغربى:**

هؤلاء هم عبيد الفكر الغربى، وهذا هو اتجاههم، وهذا هو موقفهم من الدعوة إلى الحل الإسلامى، أى إلى استئناف حياة إسلامية صحيحة يقوم فيها مجتمع إسلامى صحيح بكل مقوماته، وكل خصائصه، يقوده حكم إسلامى قوى أمين.

فما موقفنا – نحن رجال الفكر الإسلامى – من هؤلاء؟

إن الذى يحدد موقفنا من هؤلاء هو معرفة حقيقة مواقفهم وأفكارهم، وما وراء الأفكار من بواعث ونوايا وأهداف، فلا ريب أنهم جد متفاوتين من هذه الناحية وتلك.

● **العمـــــــلاء:**

فبعض هؤلاء حاقدون على الإسلام؛ دينه وكتابه وتاريخه وأمته، يحملون فى جنوبهم روحا صليبية، غذاها تعصب أعمى، وغل دفين وسياسات ماكرة، وإن تستروا تحت أقنعة وعناوين أخرى.

وهؤلاء لا حيلة فيهم إلا أن يشفى الله صدورهم، ويزيح الغشاوة عن أعينهم فيتبينوا فضل الإسلام، وسماحة الإسلام، وكرم أخلاق المسلمين، وإلا فالأمر كما قال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها   إلا عداوة من عاداك من حسد

وذلك لأن الحاسد لا يرضيه إلا زوال نعمتك، ومن حسدك لدينك لم يرضه إلا هدم دينك من أساسه. وقد قال الله فى شأن قوم من أمثال هؤلاء قديما: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة:١٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة:١٠٩] وقال: ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة:٢١٧].

● **الملحـــــدون:**

وبعض هؤلاء ملحدون فى حاجة إلى أن يؤمنوا بالله ورسالالته قبل كل شئ، أى قبل أن نجادلهم فى شريعة الإسلام، ونظام الإسلام، وحضارة الإسلام. فإن الخلاف إذا كان فى الأساس والأصول لا يعالج بالنقاش فى الجزئيات والفروع.

ربما يجدى أن نبدأ معهم من نقطة الصفر، ونعرف لماذا ألحدوا؟ لماذا كفروا بالله ورسله؟ ونفتح معهم حوارا هادئا رصينا يقوم على منطق العقل الصريح، والعلم والصحيح، والبرهان القاطع.

لعلهم يجدون فى الإسلام «إلها» غير الإله الذى كفروا به تقليدا لغيرهم وكتابا غير الكتب التى سمعوا أو قرأوا شيئا عنها، وشريعة غير التقاليد التى صبغت بصبغة الدين – زورا – فى الغرب أو الشرق.

فإذا استطعنا أن نزيل الشبهات التى علقت بأفكارهم، ونبين لهم ضرورة الإيمن بالله ووحيه ولقائه، أمكننا بعد ذلك أن نعالج الشبهات الفرعية التى تتراءى لهم فى بعض ما يقرؤون أو يسمعون عن الإسلام؛ عقيدته أو شريعته أو حضارته أو تاريخه.

● **المقلـــدون:**

وبعض هؤلاء ليسوا ملحدين من الأعماق، وإنما هم مقلدو ن للملحدين وبعبارة أخرى: هم جهلة بالإسلام فى حاجة إلى أن يتعلموا أو يستنيروا، و هذه

هى فرصة، لتعليمهم وتنويرهم. من هؤلاء من لم يعرف الإسلام قط، ولم يقرأ عنه شيئا وإنما عرفه من واقع المسلمين، وسوء أحوالهم، وهذا ليس حجة على الإسلام. ومنهم من عرفه مما كتبه الغربيون والمستشرقون عنه، وهى كتابة ينقصها التجرد والإنصاف، أو يشوبها الجهل بروح الإسلام، ولغته وبيئته. وهذه المعرفة يعتبر الجهل خيرا منها.

إن علينا هنا أن نعرف ما عند هؤلاء من تساؤلات لنبحث عنها بما يقنع العقول ويشفى الصدور، وأن نتبع الشبهات المثارة لديهم، لنفندها بالحجج والبينات لا بالدعاوى والشعارات، ولا يتصدى لهذه المهمة إلا الراسخون فى العلم، فإن من الدعاة من إذا تصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح، فليس كل خطيب مفوه، أو واعظ مؤثر يصلح لمحاورة العقلانيين المعاصرين.

ولكن المشكلة أن جهل كثير من هؤلاء من النوع «المركب» جهل الذى «لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى» وهذا هو الأمر الذى عبر عنه الشاعر قديما إذ قال:

إذا كنت لا تدرى بأنك جاهل   فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى؟

وبعض هؤلاء مفتونون بالقوة والغلبة والحضارة التى جعلت من الغرب سيدا للعالم، ومكنته من السيطرة على المادة، والتحكم فى قوى الطبيعة وتسخيرها لأغراض الإنسان، ومنافعه المادية الدنيوية العاجلة، فهم مولعون بهذا الغرب القوى المسيطر، وبكل ما جاء به، ولع المغلوب بتقليد الغالب، كما قرر العلامة ابن خلدون.

ولا أحسب هؤلاء يتنازلون عن هذا الولع المفتون – أو عن تلك العبودية للغرب – وحضارته ومفاهيمه وقيمه إلا إذا تبدلت موازين القوى، وكان للإسلام قوة ودولة وسيادة وسلطان.

● **مع الغالب المنتصر :**

ويوم تتحرك الريح فى اتجاه الإسلام، سنرى هؤلاء وقد خلعوا « البرنيطة » الغربية والفكرية، ولبسوا » « العمامة » الإسلامية، وراحوا يملأون أنهار الصحف بتمجيد الإسلام، وحكم الإسلام، وأدب الإسلام!

ومن كان فى شك مما أقول فإنى أعرض عليه مثلا واحدا يؤيد ما أقول :

كلنا يعرف دعوة الدكتور طه حسين التى ملأ بها كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر» والتى اعتبر بها مصر جزءا من أوروبا لا من الشرق، وزعم فيه« أن وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية » وكان كل همه فى الكتاب أن يثبت لمصر الشخصية المصرية الأوربية لا العربية ولا الإسلامية.

وأكثر من ذلك أنه فى بعض أحاديثه الصحفية كان يقف بصراحة فى وجه الوحدة العربية، ويخطئ الذين يدعون مصر إلى أن تدخل فى هذه الوحدة القومية أو تقودها!!

فلنصغ جيدا إلى هذا الحديث، ففيه عبرة وذكرى.

التقى محرر مجلة « المكشوف » البيروتية بالدكتور طه حسين وجرى بينهما هذا الحديث :

عندنا يا أستاذ من يريد أن تكون مصر زعيمة الأقطار العربية، ومرشدها إلى طريق الحرية والاستقلال؟

فأجاب الدكتور : «إن كنت تقصد بذلك تضامنا ثقافيا بين البلاد العربية، فإن مصر مستعدة للدخول فيه، وأنا من أنصاره ودعاته.. وإن كنت تقصد التعاون الاقتصادى فهو ممكن ومفيد. أما إذا كنت ترمى إلى أن مصر مستعدة للمساهمة فى الوحدة العربية، أو القومية العربية، فأنت على خطأ، فالمصرى مصرى قبل كل شئ، وهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف. الوحدة العربية – كما يفهمها ذووها – يجب أن تتحقق بشكل أمبراطورية جامعة، أو

اتحاد مشابه للاتحاد الأمريكى أو السويسرى، ونحن لا نرضى بهذا أو ذاك، ولا تصدق ما يقوله بعض المصريين بأنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصلة فى نفوسهم، وستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وأن تقوى»!

ثم أخذ الدكتور طه حسين فى حديثه هذا يذكر الأسس التى يمكن أن تقوم عليها الوحدة العربية ويناقشها، والروابط التى تربط بين مصر والبلاد العربية، فلا يراها كفيلة ولا كافية ولا موصلة إلى هذه الوحدة، وفى ذلك يقول: «إن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن أى بلد آخر، ومصر اليوم هى مصر الأمس، أى مصر الفراعنة، والمصرى فرعونى، قبل أن يكون عربيا».

وقال أيضا: لا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها (أو فرعونيتها) وإلا كان معنى طلبكم: اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام، وانسى نفسك واتبعينا»[1]

فهل ثبت الدكتور العميد على رأيه هذا فى رفض القومية العربية، والإصرار على القومية المصرية الفرعونية؟

كلنا يجيب: أن لا.

لقد قامت فى مصر بعد ذلك دعوة للقومية العربية، وللوحدة العربية، تبنتها الدولة، دولة الثورة، التى تمنح الجوائز التقديرية، وتملك أن توسع على من تشاء، وأن تضيق علي من تشاء، فهل عارض الدكتور هذه الدعوة إلى القومية العربية والوحدة العربية؟

كلا، بل سار فى ركاب الدولة مؤيدا اتجاهها، إلى اليمين كان أو إلى

---

(١) نقل هذا الحديث عن مجلة المكشوف سلامة موسي في مجلته «المجلة الجديدة» عدد ديسمبر سنة ١٩٣٨ كما في كتاب (سلامة موسى) لمحمود الشرقاوي ص ١٥٢. ورد علي طه حسين ساطع الحصري في كتابه «بين مصر والعروبة». وانظر «نقد الفكر القومي» لإلياس مرقص ص ٥٤٤ وما بعدها.

اليسار، إذا تفرعنت فهو داعية الفرعونية، وإذا تعربت فهو داعية العروبة، وطبعا، إذا أسلمت فهو شيخ الإسلام!

ربما يقول قائل: ولماذا لا نفسر هذا التغير فى الموقف السياسى، بأنه تم بناء على تغير فى الفكر، وتطور من الوطنية الإقليمية الضيقة إلى دائرة القومية الواسعة؟

ونقول : لا مانع من التسليم بهذا التفسير، وهو على كل حال تفسير ينفعنا ولا يضرنا، فإن الذى يتغير وينتقل من وطنية ضيقة إلى قومية واسعة، قابل لأن يتغير وينتقل من الدائرة القومية إلى دائرة إنسانية أرحب وأوسع، وهى دائرة الإسلام.

● **المتعالمـــــون:**

ومن أشد أنواع عبيد الفكر الغربى خطرا: صنف ظهر حديثا، لا أجد وصفا يجليهم ويبرز سماتهم المشتركة إلا أنهم (المتعالمون).

هؤلاء الذين طلعوا على الناس بدين جديد غير الدين الذى عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا من الزمان، وفهمته من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن هدى أصحابه عامة، وخلفائه الراشدين خاصة، ومن فهم سلف الأمة الذى أجمعت عليه فى خير قرونها، فجاء هؤلاء بدين غير هذا الدين، وشريعة غير هذه الشريعة،ومنهج غير هذا المنهج.

فهم يقدسون القرآن، لكنهم يقرأونه - فيما زعموا - قراءة معاصرة، قراءة جديدة لا ترجع إلى أصول الفقه، ولا أصول التفسير، ولا أصول الحديث، ولا تأخذ بما ثبت عن رسول الله ﷺ فى التفسير، لأن السنة عندهم مشكوك فيها، والبخارى ومسلم - فضلا عمن هو أدنى منهما - حاطبا ليل، جامعان للعاطل والباطل، وتفاسير الصحابة والتابعين - وإن أجمعوا عليها - لا تلزمنا، فهم رجال ونحن رجال، وإجماع أئمة الفقه من كل المذاهب، ومن كل المشارب لا يلزمنا،

فقد اجتهدوا لزمنهم، ونحن نجتهد لزمننا .وهم لا يملكون من شروط الاجتهاد كثيرا ولا قليلا، ولعل أحدهم لا يستطيع أن يقرأ آية من القرآن قرآءة صحيحة!

ولو أنك أعطيت أحدهم صفحة من كتاب تراثى فى أصول الفقه أو الفقه أو فى التفسير أو الحديث أوعلم الكلام لم يستطع أن يقيم لسانه فى قراءتها، – ناهيك أن يفهمها – لأنه لا يفرق بين فاعل ومفعول، ولا يعرف مرفوعا من منصوب .

إنهم لم يدرسوا الثقافة الإسلامية، والثقافة العربية، فى مصادرها الأصلية، ولم يستقوها من ينابيعها النقية، بل خطفوا صفحات من هنا، وصفحات من هناك وجمعوا قشورا من هنا ومن هناك، واستقرت فى عقولهم شبهات أو مفتريات من هنا، ومن هناك . ومن هذا الخليط تكونت ثقافتهم التى يباهون بها!

من هؤلاء من يعتبر القرآن نصا تاريخيا، يحكم على زمنه، ولكنه لا يحكم على زمننا .

وبعضهم يؤوله تأويلا، لا يخضع لأصول منضبطة، ولا لقواعد معلومة، أشبه بما كان يفعله الباطنية قديما بطريقة جديدة .

وبعضهم يدعى أنه فوق الأئمة المتبوعين، وفوق شيوخهم من التابعين بل فوق الصحابة أنفسهم، فهو أفهم منهم لكتاب الله، وأفقه منهم لدين الله، وهكذا يفعل الغرور والإعجاب بالنفس لأهله .

ومعنى هذا : أن من حق كل امرئ أن يجعل لنفسه دينا وفق مزاجه، وتبعا لرأيه وهواه، وأن لا يوجد للناس مرجع يعتمدون عليه، ،ويحتكمون عند الاختلاف إليه، مادام كل امرئ أصبح هو المرجع والمعتمد، وأن الدين الذي يفترض فيه أن يجمع الناس قد أصبح مفرقا لهم، وصاروا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون . لأن كل واحد اتبع سبيله الخاص، ولم يتبع (سبيل المؤمنين) فتفرقت بهم السبل، وبعدت بهم عن صراط الله كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

ومقتضى موقف هؤلاء : أن الأمة الإسلامية طوال قرونها لم تفقه دينها ولم تفهم قرآنها، ولم تعرف شريعة ربها، وأنها كانت أمة بلهاء مغفلة أجمعت على الضلالة، وزور عليها بعض الكذابين أحاديث عن نبيها فصدقتهم، ومشت وراءهم، وأن هؤلاء الجدد هم الذين جاءوا لها بطوق النجاة. رغم أنهم فيما بينهم مختلفون جد الاختلاف، وكل واحد من هؤلاء، أمثال محمد أركون فى فرنسا، ومحمد شحرور فى سوريا، ونصر أبو زيد، وسعيد العشماوى فى مصر، ومحمود محمد طه فى السودان، وأمثالهم من (المتنبئين) الذين يرون - فى قرارة أنفسهم - أنهم أفضل من محمد رسول الله ﷺ، وأفهم منه للدين الذى أرسله الله به، وتلقاه عنه الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان.

فمن هؤلاء من يريد (مركسة) الإسلام، ومنهم من يريد (رسملة) الإسلام ومنهم من يريد (تنصير) الإسلام. والإسلام هو الإسلام، بأصوله ومصادره وبأهدافه ومناهجه، لا يقبل تفسيرا ماركسيا، ولا رأسماليا، ولا نصرانيا. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

● عبيد الأمس شبه معذورين:

وأورد أن أفرق هنا بين فئتين من العبيد المفتونين بالفكر الغربى، بين عبيد الأمس وعبيد اليوم.

وأساس هذه التفرقة هو المناخ الفكرى والمرحلة الزمنية التى نبتت فيها كل فئة وترعرعت تحت ظلالها.

عبيد الأمس ربما كان لهم شبه عذر فى موقفهم من دينهم وتراثهم وحضارتهم، وهو موقف التمرد والعصيان والاستخفاف، وفى موقفهم من الفكر الغربى الدخيل، والحضارة الأجنبية الوافدة، وهو موقف الإذعان والاستسلام بل العبودية.

فقد نشأ هؤلاء والحياة مقبلة على عدوهم مدبرة عن أمتهم، والغموض والظلام يكتنف دينهم وتراثهم، وبريق الحضارة الغازية يخطف أبصارهم، وتمكن المستعمر المتسلط أن يختم على قلوبهم وأسماعهم، ويجعل على أبصارهم غشاوة، ويجعل بينهم وبين الإسلام الصحيح حجابا مستورا.

لقد نشأ هؤلاء فى ظل نظام تعليمى عرفناه من قبل، وضع بذوره الاستعمار وغذاه، فلم يعرفوا عن الإسلام إلا قشورا تافهة بل ممسوخة محرفة، موضوعة فى أسوأ إطار، خليقة بأن تنفر من الإسلام ورسالته، لا أن ترغب فيه وتجذب القلوب والعقول إليه.

وهذا النقص الخطير قد لاحظه الغيورون الصادقون ونقدوه ونددوا به منذ زمن غير يسير، فنقرأ للمنفلوطى الأديب المشهور فى« النظرات » هذه العبارات المتوقدة.

« إن عارا على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف عن تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث داروين ما لا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى ».

ولم يكن الخطر فى قصور المعلومات الإسلامية وقلتها من ناحية (الكم) فحسب، بل كان فى قيمتها ونوعيتها من ناحية (الكيف) أيضا، فهى معلومات مشوشة ومضطربة، وغير مترابطة ولا معللة. وأهم من ذلك كله وأعظم تمثل الخطر فى فلسفة النظام كله، الذى يقوم على الأسلوب الغربى، والتفكير الغربى، والمبادئ الغربية. وينظر إلى الإسلام كما ينظر إلى الكونفوشيوسية فى الصين أو البوذية فى كوريا، ويقدم للطلاب من المعلومات والدراسات ما يقربه إلى المستعمر وحضارته، بقدر ما يبعده عن دينه وشريعته، ويفصله عن أمته وتاريخها وأمجادها.

ومن لم ينضجه هذا التعليم من النابهين المرجوين، يسرت له السبل ليذهب إلى هناك، إلى الغرب فى عقر داره، ومهد حضارته، ليتم إنضاجه، وتكمل تسويته، هناك على الوجه المطلوب، حتى يعود خلقا آخر وإنسانا جديدا قد خلع زيه الشرقى القديم، وخلع معه قيمه وأفكاره التى تعلمها من دينه ومجتمعه من قبل..

وكان من عند هؤلاء: أن الذين يتكلمون باسم الإسلام – فى ذلك الوقت – فيهم كثيرون ممن تخلفوا عن ركب الحضارة أو جهلوا تطورها، كما جهلوا حقيقة الدين وروحه ولبابه، فوقفوا أحيانا فى وجه بعض العلوم النافعة، كما تشددوا فى أشياء حسبوها من الدين، وإنما هى مما خالط الدين وليس منه. فحسبت أقوال هؤلاء المتزمتين ومواقفهم على الإسلام، وهو منها براء.

فلا غرو إذا رأينا هولاء العصريين، وقد جهلوا دينهم وتراثهم، وتاريخهم وثقافة أمتهم، وأساءوا الظن بكل ما يجئ من قبل دينهم وحضارتهم، والناس دائما أعداء ما جهلوا – وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [يونس :٣٩] وكذلك جهل هؤلاء الإسلام فعادوه وخاصموه. ولعلهم فى ذلك شبه معذورين.

أقول : شبه معذورين، لأن الواجب عليهم – كان – ألا يحسنوا الظن بمستعمرى أوطانهم ومذلى شعوبهم، وأعداء دينهم، وكان واجبهم ألا يسلموا قياد عقولهم لغيرهم ، وألا يكونوا إمعات فى تفكيرهم، وألا يجعلوا أنفسهم عبيدا لغيرهم وقد خلقهم الله أحرارا.

وكان المنهج العلمى الذى تعلموه يقتضيهم أن يبحثوا عن حقيقة هذا الدين الذى جعل من قومهم – حين تمسكوا به وحكموه فى حياتهم – خير أمة أخرجت للناس، وفتحوا به الممالك، وسادوا به فى المشرق والمغرب، وأقاموا حضارة شامخة، استمرت نحو عشرة قرون، وأن يبحثوا فى هذا القرآن الذى

مضى عليه أربعة عشر قرنا، وهو باق لا يتبدل، يملك بسحره العقول والقلوب، ويتضمن أصح العقائد،وأقوم المفاهيم، وأرسخ القواعد، وأعدل الأحكام، وأزكى الأخلاق. وعلى أية حال، إذا كان هؤلاء شبه معذورين فيما مضى، فأى عذر أو شبه عذر لهم اليوم، وقد غدا الحال غير الحال؟

لم يعد صنم الحضارة الغربية على سحره وفتنته وبريقه كما كان بالأمس.

لقد ظهر للعيان إفلاس هذه الحضارة، وعجزها عن حراسة العدل والسلام بين البشر، وإقامة الحق والخير فى الأرض،و تثبيت الإيمان والفضيلة بين الناس.. وبرزت آفات هذه الحضارة وعيوبها للأحرار من أهلها أنفسهم، ووجهت إلى صدرها سهام النقد العلمى الأصيل من علماء ومؤرخين وفلاسفة ومصلحين وفنانين من أبنائها الغربيين [١].

ولم تعد حضارتنا الإسلامية مطمورة مجهولة، أو ممسوخة، كما كانت من قبل، فقد تجلى – ويتجلى كل يوم – للدراسين إبداعها وشمولها وتوازنها وسماحتها، وأنها الحضارة الفذة التى جمعت – بل مزجت – بين الربانية والإنسانية بين نور الوحى ونور العقل، بين الرقى المادى والسمو الخلقى، بين العلم الواسع والإيمان الراسخ، بين الثبات على المباءئ والغايات، والتطور فى الوسائل والآلات، بين تحقيق الحرية للفرد، والحفاظ على مصلحة المجتمع.. وقد شهد بفضل هذه الحضارة العالمية الأصيلة شهود من سادة هؤلاء ومعبوديهم وكفى بهم عندهم شهداء.

ولم يعد ديننا العظيم «الإسلام» غامضا أو مشوها، كما كان من قبل، فقد هيأ الله له من العلماء المخلصين والدعاة الصادقين فى مختلف بلاد المسلمين من جلوا غوامضه، ونفضوا الغبار عن جواهره، وردوا الشبهات والأكاذيب عن أحكامه وتعاليمه، وعن نبيه وكتابه، وعن أمته وتاريخه.

---

(١) اقرأ في ذلك: الفصل الثالث في كتابنا (الإسلام حضارة الغد) بعنوان: عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار.

وزخرت المكتبة الإسلامية – فى شتى اللغات – بمجموعة رائعة من الكتب والدراسات ما بين مطول ومختصر ووسيط، أبرزت الأصالة والسمو والتوازن والتكامل والإعجاز فى جوانب الإسلام كافة، فى العقائد والعبادات والتشريع والأخلاق، وفى سائر مجالات حضارة الإسلام.

فليت شعرى أى عذر أو شبه عذر اليوم لذلك النفر من قومنا؟ وما حجتهم عند الله وعند الناس إذا ظلوا مصرين على عبوديتهم القديمة، بعد أن تجلت لهم كل هذه الحقائق عن دينهم وتراثهم، وبعد أن انكشف للأعين البصيرة سوءات سادتهم من المستشرقين والمبشرين، فضحتها الأقلام الواعية المؤمنة، وكشفت اللثام عما فى منهجهم ودراساتهم من القصور والانحراف والتحامل، واتباع الظن وما تهوى الأنفس؟ وبعد أن اتضح لهم من أحابيل اليهودية العالمية ما كان خافيا من قبل.

نتمنى على هؤلاء النفر من بنى جلدتنا، أن يراجعوا أنفسهم، وأن يصححوا موقفهم، ويعودوا بشجاعة إلى حضن أمتهم، ولا يظلوا جامدين على ما كانوا عليه. فالمثقف الحر المخلص هو الذى يركض وراء الحقيقة حتى يعثر عليها، فإذا وجدها أعلن عنها، وإن خالفت ما كان يؤمن به بالأمس.

وبارك الله فى رجال انكشفت لهم الحقيقة، فأعلنوها ولم يبالوا. مثل: د. مصطفى محمود، و الأستاذ إسماعيل مظهر، والأستاذ خالد محمد خالد، وغيرهم كثيرون، ممن صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾

[الزمر: ١٧، ١٨]

● كلمتان أخيرتان:

وأود أن أختم هذا الفصل بكلمتين أخيرتين:

الكلمة الأولى: أن خصومتنا لعبيد الفكر الغربى من بنى جلدتنا، لا تعنى أن نعرض وننأى بجانبنا عن الفكر الغربى كله، شره وخيره، ومره وحلوه، وخطئه وصوابه، وباطله وحقه. بل المطلوب أن نستفيد من إيجابيات الفكر الغربى،

ونتجنّب سلبياته، ونقتبس من خيره وصوابه، ونبتعد عن شره وخطئه. ومقتضى هذا أن ندرس الفكر الغربى بمدارسه المختلفة، واتجاهاته المتعددة، لنكتشف ما فيه من حق وخير فننتفع به. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

قد نرفض الفكرة الكلية، أو الفلسفة الكلية لمذهب ما، أو لمدرسة ما، ومع هذا قد نجد فى تضاعيف هذه الفكرة أو الفلسفة من المفاهيم والأفكار الجزئية، ما يفيد البشر فى بعض شؤونهم أو يوافقهم.

وقد ذكرت فى أكثر من كتاب لى؛ أننا لا نمانع أن نقتبس بعض الأفكار النافعة من نشوئية (دارون) أو مادية (ماركس) أو تحليلية (فرويد) أو اجتماعية (دوركايم) وإن كنا نرفض الفلسفة الكلية لكل منهم. ولكن رفضنا لهذه الفلسفة لا يعنى أن يكون كل ما قالوه، خطأ بالضرورة، فقد يصيب المخطئ، ويصدق الكذوب.

إن رفضنا العبودية للفكر الغربى لا يستوجب رفضنا للفكر الغربى كله، ففيه قطعا ما ينفع. المهم هنا أن نقرأ ما شئنا أن نقرأ، ونقتبس ما شئنا أن نقتبس، ونحن أحرار لا عبيد، مستقلون لا تابعون، رؤوس لا أذناب.

والكلمة الثانية: أن العقود والسنوات الأخيرة فى ديارنا، قد شهدت تحول كثيرين من الذين اقتنعوا بالفكر الغربى، وساروا فى دربه ردحا من الزمن إلى ساحة الفكر الإسلامى، حتى أصبحوا من دعاته والمتحمسين له، والمدافعين عنه.

وقد عرف الناس كثيرا من هؤلاء الشجعان الأحرار، مثل إسماعيل مظهر، ود. مصطفى محمود، وخالد محمد خالد، وغيرهم فى مصر، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية.

ولا زالت الساحة الإسلامية - ما بين الحين والحين - تكسب عناصر قوية، ومفكرين شرفاء، يغيرون مواقعهم، ويتحررون من أسرهم الفكرى المتغرب، ليعلنوا فى شجاعة انضمامهم إلى الركب الإسلامى الزاحف: ﴿ **وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [الصف: ٨].